الفصل الثاني
البِنَاءُ الفِكْرِيُّ ومُسْتَوَياتُه

مقدمة

أولاً: البناء الفكري، بناء ولكنه في الفكر

ثانياً: مراحل بناء الفكر ومستوياته

ثالثاً: حوار العلم والفكر

رابعاً: حركة الفكر وفكر الحركة

خامساً: المدارس الفكرية

خاتمة

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الثاني

البِنَاءُ الفِكْرِيُّ ومُسْتَوَياتُه

مقدمة:

تناول الفصل الأول من الكتاب مفهوم الفكر والمفاهيم ذات الصلة المباشرة بهذا المفهوم، وذلك في المصادر الإسلامية على وجه التحديد من قرآن كريم، وسنة نبوية، واجتهادات العلماء. ويتخصص هذا الفصل الثاني بالحديث عن البناء الفكري، وتمثلاته في الاصطلاحات المعاصرة. وينظر إلى البناء الفكري، بوصفه "عملية" تتم وفق تصور معين، وتمر بمراحل متتابعة، وتصل إلى مستويات متعددة، يكون كل مستوى منها عَلَماً على شخصية من الشخصيات المعروفة في الثقافة المعاصرة، فهناك المفكر، والمثقف، والعالم، والداعية، والمصلح، والفيلسوف، ولكل منهم بناؤه الفكري.

كما ينظر الفصل إلى البناء الفكري بوصفه تغيراً في الزمان، وحركة في المكان، وهو وصف للفرد، ووصف للجماعة، ووصف للأمة. ولذلك تناولنا بالمعالجة العلاقة بين حركة الفكر وفكر الحركة، وتحدثنا على البنى الفكرية للحركات والمدارس الفكرية وما يميز كلاً منها عن غيرها.

وقد شهد التاريخ الإسلامي استخداماً مكثفاً لمصطلحات مثل العلم والفقه، بصورة تجعل بعض الناس ينفرون من استخدام مصطلحات أخرى مثل مصطلح الفكر مؤشراً على قيمة العطاء الذي يحمله الفرد أو الجماعة، ولذلك جرى التأكيد على أننا لا نود أن نجعل هذه المصطلحات متقابلة وبديلة لبعضها بعضاً. فالسياق هو الذي يحدد المصطلح المناسب، ولكل مصطلح قيمته والمقام الذي يصلح له أكثر من غيره، وسوء الاستخدام يمكن أن يقع على أي مصطلح.

وقد لاحظنا أن التفاوت في مستوى البناء الفكري لا يتوقف على الأفراد،

بل يمكن أن يطال الجماعة والمجتمع والأمة، وأن هذه التفاوت يمكن أن يوصف بين حَدَيِّ الغنى الفكري والإفلاس الفكري. والتفاوت لا يقتصر على مستوى البناء الفكري، بل يكون أيضاً في مدى الاهتمام بعالَم الأفكار، بالمقارنة بالاهتمام بعالَم الأشياء أو عالم الأشخاص.

وقد مرت الأمة في تاريخها بمراحل ودورات من التقدم والتخلف في الاجتهاد والتجديد الفكري. ولذلك وجدنا أن جهود الإصلاح الفكري الإسلامي لم تتوقف عبر العصور. ولم يخل هذا التاريخ كذلك من حركات شابتها انحرافات فكرية، أشغلت الأمة واستنزفت طاقاتها الفكرية والعملية.

أولاً: البناء الفكري، بناءٌ ولكنه في الفكر

البناء الفكري، عنوانٌ من كلمتين: بناء، وفكر، وهما كلمتان مفتاحيتان في النشاط البشري، كل منهما مصدر لفعل، وكل منهما يشير إلى الفعل وإلى نتيجة ذلك الفعل؛ فالفكر موضوع يتم بناؤه، والبناء عمل موضوعه الفكر. والعمل بالفكر من أشرف الأعمال، والفكر لا يدخل إلى الإنسان جسماً كاملاً، ولا يأخذه الفرد ممن يعطيه إياه كتلة كاملة، لتنتقل ملكيتُه من الـمُعْطِي إلى الآخِذ، إنما يَبْنِيه الإنسان بناءً، لبنةً بعد أخرى.

مفهوم البناء يصاحبه التخطيط والتصميم والتنظيم، ويقابله التكديس والتجميع العشوائي، ومفهوم الفكر يصاحبه العلمُ في تَمَكُّن، والثقافةُ في إحاطة، والوعي في رشد، ويقابله تقليد بلا علم، وتبعية بلا هدى، وتعصب أعمى دون نظر، فالذي لا يملك فكراً إنّما يقوم بما يقوم به من أعمال انقياداً لهوى متَّبَع، سواءً كان هوى نفسه، أو هوى غيره.

البناء عملية، وهو ناتج لهذه العملية؛ عملية تتم بمنهج وطريقة، وناتج لهذه العملية يظهر بخصائص ومواصفات محددة. عملية البناء تعنى عملية الانتقال من حالة قائمة إلى حالة منشودة؛ فثمة هدف، وخطة للوصول إلى الهدف، يتم تنفيذها في خطوات محددة. أما البناء بمعنى الناتج من عملية البناء، فهو تركيب

من مواد أو مكونات، بمقادير ونسب، تتصل ببعضها بعلاقات وروابط، وتظهر في صورة تنظيم محدد يمكن وصفه وصفاً نوعياً وكمياً.

ولتقريب مفهوم البناء الفكري إلى الذهن يمكن المقارنة بين البناء المادي والبناء الفكري من حيث ضرورة وجود تصور مسبق في الحالتين، للغرض من البناء ومواده وعناصره وطريقة بنائه والخطة الزمنية لتنفيذه... إلخ، ومع ذلك فإنّ ثـمَّة فوارق أساسية بين النوعين من البناء تختص بالتمايز الجوهري بين المادة والإنسان، فالبناء الفكري بناء للإنسان يتصف بالحركة والتطور والتغير والنمو من داخل الإنسان، وتتشكل شخصية الفرد الإنساني من بنائه الفكري، وبنائه النفسي. وفي الوقت الذي يختص البناء الفكري بالقناعات العقلية والمعتقدات، وما تتضمنه من حقائق ومفاهيم ومبادئ ونظريات، فإنَّ البناء النفسي يختص بالجانب الانفعالي والوجداني من الإنسان، حيث تتحكم الإرادة والدوافع والمشاعر في السلوك العملي للإنسان، وكما أنَّ الإنسان يحتاج إلى تربية وتنمية في الجانب الفكري – العقلي، فإنَّه يحتاج إلى تربية وتنمية في الجانب النفسي – الوجداني، ولكل من الجانبين مواده وطرقه في التربية والتنمية.

والفكر هو نتاج عملية التفكير، وعملية التفكير نشاطٌ ذهني داخلي يقوم به الإنسان بصورة واعية أو غير واعية، وهذه العملية تتضمن مرور الخواطر والتخيلات والمدركات الحسية أو الانفعالية، التي تسبق أو ترافق قيام الإنسان بأي سلوك أو تصرف خارجي. لذلك فالفكر جهد بشري يلحقه الصواب والخطأ، فلا يتصف بالعصمة ولا القداسة. وبقدر ما يكون هذا الفكر مستنداً إلى نقلٍ صحيحٍ وعقلٍ صريح، ومنسجماً مع الطبائع والوقائع، يكون الفكر أقرب إلى الصوابِ وأبعد عن الخطأ.

ومع أن الإنسان يقوم بالتفكير بصورة دائمة، فإن فهم عملية التفكير والأعضاء التي تقوم بها يحتاج إلى قدر كبير من الجهد، وكثير من جوانب هذه العملية لا يزال غامضاً، وبحوث علم النفس الارتقائي وعلم نفس الأعصاب، ونظريات

التعلم البشري... تقدم إشارات غير كافية في بيان دور الدماغ والقلب وعوامل البيئة الخارجية. ومع ذلك فقد تم التمييز بين أنواع من التفكير لكل منها دوره وأهميته في تكييف حياة الفرد الإنساني وبناء مقومات المجتمع الإنساني، ومن هذه الأنواع: التفكير العميق، والتفكير المتشعب، والتفكير الإبداعي، والتفكير المقاصدي، والتفكير الاستراتيجي، والتفكير النقدي، والتفكير السببي، إلخ.

وتَمَيُّز البشر بالفكر أمرٌ مشهود ومعروف منذ أقدم الأزمان؛ لأنَّه صورةٌ من صور وَعْي الإنسان بذاته وبما هو خارج عن ذاته، يقول ابن خلدون: "اعلم أنَّ الله سبحانه وتعالى ميّز البشر عن سائر الحيوانات بالفكر الذي جعله مبدأ كماله ونهاية فضله على الكائنات وشرفه؛ ذلك أن الإدراك -وهو شعور المدرك في ذاته مما هو خارج عن ذاته- هو خاص بالحيوان فقط من بين سائر الكائنات والموجودات، فالحيوانات تشعر بما هو خارج عن ذاتها، بما ركَّب الله فيها من الحواس الظاهرة: السمع والبصر والشم والذوق واللمس، ويزيد الإنسان من بينها أنه يدرك الخارج عن ذاته بالفكر الذي وراء حسِّه، وذلك بقوى جعلت له في بطون دماغه، ينتزع منها صور المحسوسات ويجول بذهنه فيها، فيجرد منها صوراً أخرى. والفكر هو التصرف في تلك الصور وراء الحسّ، وجولان الذهن فيها بالانتزاع والتركيب، وذلك معنى الأفئدة في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الملك: ٢٣]. والأفئدة جمع فؤاد وهو هذا الفكر."[1]

وبين الفكر الذي هو فطرة طبيعية في الإنسان، والمنطق العقلي الذي هو أمر صناعي، واللغة البشرية التي يكتسبها الإنسان بالتعلّم، صلةٌ وثيقة. يقول ابن خلدون: "الفكر الإنساني طبيعة مخصوصة فطرها الله كما فطر سائر مبتدعاته... ثم إنَّ الصناعة المنطقية هي كيفية فعل هذه الطبيعة الفكرية النظرية، تصفُه لتَعْلَمَ

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن. **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٤م، ج٣، ص ١٠٠٨-١٠٠٩.

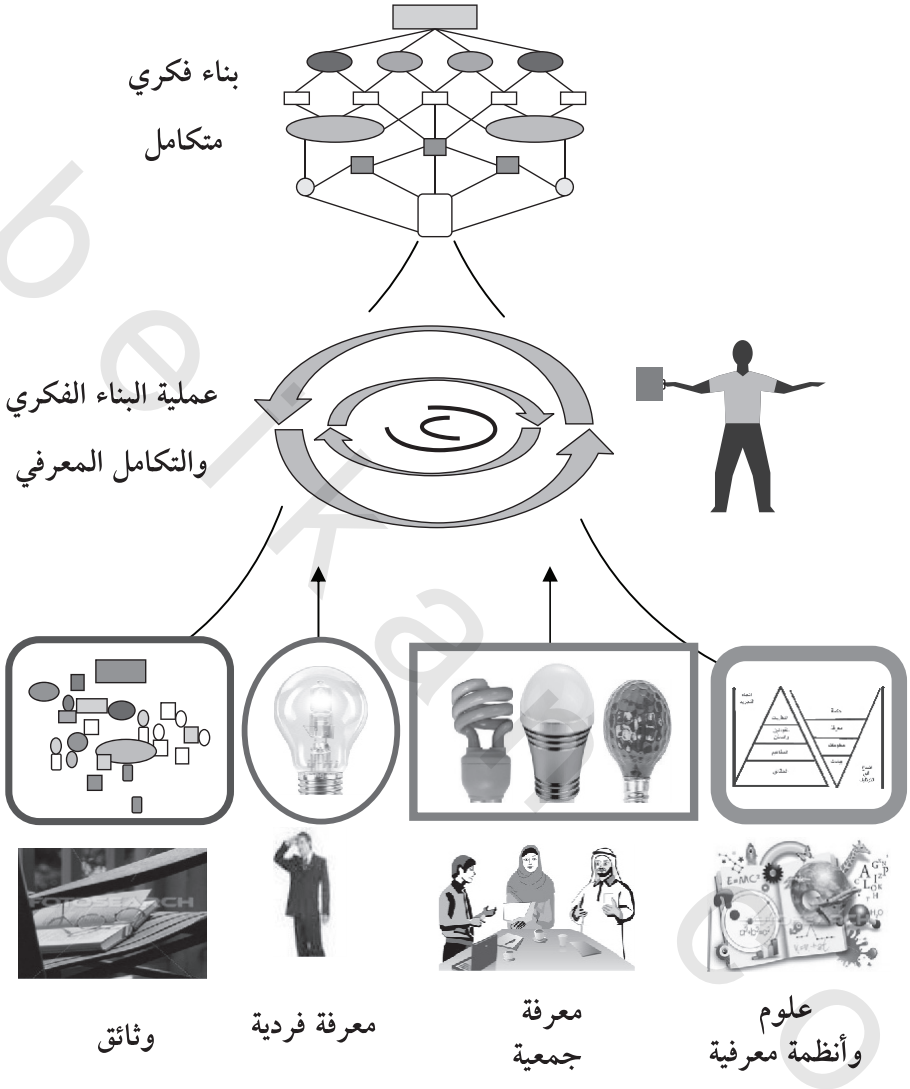

مخطط تمثيلي يوضح مصادر البناء الفكري وعملية البناء

سدادَه من خطئِه... فالمنطق أمر صناعي مساوق للطبيعة الفكرية ومنطبق على صورة فعلها... ثم من دون هذا الأمر الصناعي الذي هو المنطق مقدمة أخرى من التعلّم، وهي معرفة الألفاظ ودلالتها على المعاني الذهنية، تردها من مشافهة الرسم بالكتاب[1]، ومشافهة اللسان بالخطاب..."[2]

ويميز عالِمُ النفس الإسلامي مالك بدري بين التفكير بوصفه عمليةَ مرور الخواطر في الذهن البشري بصورة تقليدية عادية، والتفكّر الذي عدَّه منزلة أرقى من التفكير، فهو جهد مقصود للوصول إلى الحقيقة في أمر يطلب الإنسانُ إدراكَه، وذلك عن طريق تَعَقّلِ الأمر، وتصرُّفِ القلب، وطلب الدليل والتأمل فيه. والتذكّر نوع من التفكُّر يتضمن استحضار الذهن ما كان يعلمه الإنسان عن الموضوع، وما يقابله ويقاربه فلا يغفل، وليكون التذكر موعظة وتبصرة. أما التدبُّر، فإنّه يتجاوز كل ذلك إلى النظر في عواقب الأمور.[3]

ثانياً: مراحل بناء الفكر ومستوياته

يتعمق "مالك بدري" في قراءة مادة التفكر في التراث الإسلامي، ثم يستحضر حال الإنسان المؤمن في علاقته بالله عز وجلّ، ويستنتج من خلال ذلك وجود أربع مراحل يمكن أن يمر بها التفكر البشري. يشترك سائر الناس من مؤمنين وغير مؤمنين في المرحلتين الأولى والثانية، وينتقل المؤمنون إلى المرحلة الثالثة، وينتقل بعضهم إلى المرحلة الرابعة، ولا يطلق "مالك بدري" أسماء محددة على المراحل الثلاثة الأولى، باستثناء المرحلة الرابعة التي يسميها

(١) أي فعل الكتابة.

(٢) ابن خلدون. **مقدمة ابن خلدون**، مرجع سابق، ص ١١١٢-١١١٣.

(٣) بدري، مالك. **التفكر من المشاهدة إلى الشهود: دراسة نفسية إسلامية**. مرجع سابق، ص ٣٥-٤٧.
ينصح بدراسة هذا الكتاب الصغير، ففيه بيان تفصيلي لعلاقة الفكر بالتفكير والتفكر والتدبر والتذكر، وهي دراسة تفصيلية تجمع إلى النصوص الدينية معطيات التراث الإسلامي وعلم النفس المعاصر ونظريات التعلم، وعلاقة التفكير باللغة، وعلاقة التفكر بما هو معروف عن الطريقة العلمية، في بحوث العلوم المادية والتطبيقية.

مرحلة الشهود.

في المرحلة الأولى يتفكَّر الإنسان في المعارف التي يكتسبها بالإدراك الحسي المباشر، عن طريق الحواس، أو عن طريق تخيل الوقائع الحسية، أو عن طريق الظواهر العقلية المجردة، فيدرك دلالات هذا الإحساس ومعانيه، ويتبين القوانين والعلاقات القائمة بين الأشياء والأحداث والظواهر، ويكتسب من ذلك علماً نظرياً، ويقيم على أساسه تطبيقات عملية مفيدة. وهي معرفة مهمة للغاية بطبيعة الحال، لكن "بدري" يصف هذه المعرفة بأنها معرفة باردة. ونحن نجتهد في إطلاق مسمَّى "مرحلة الإدراك المادي" على هذه المرحلة.

وفي المرحلة الثانية من التفكّر يدقِّق الإنسان النظر في ألوان المعرفة التي اكتسبها في المرحلة الأولى، ويتجاوز في تفكره تلك الحالة الباردة من الإدراك، إلى هزة في القلب، تتدفق معها المشاعر ويصل إلى حالة من الانفعال الدافئ، والإحساس المرهف، بالخصائص الجمالية، ودقة الصنع، وبهاء المنظر، ويكتسب بذلك حالة من التذوق والتقدير. ويمكن أن نسمي هذه المرحلة "مرحلة التذوق الانفعالي."

ولا شك في أنَّ مرحلتي التفكر الأولى والثانية يصل إليهما أيُّ فرد يحاول الوصول، بصرف النظر عن إيمانه بوجود خالق عليم حكيم، أو عدم شعوره بالحاجة إلى هذه الإيمان.

وفي المرحلة الثالثة من التفكّر ينتقل من تذوق الجمال وتقديره في ذاته، إلى الصانع الحكيم الذي أبدعه أو مكّن الإنسان من إبداعه، ويتفكر من ثَمَّ بالصفات العليّة للخالق المبدع، ويستشعر الاعتراف بعظمته وفضله، والخشوع لجلاله، والإخلاص في عبادته. ولا بأس في أن نسمي هذه المرحلة مرحلة الإيمان.

أما المرحلة الرابعة من التفكّر، فإن المؤمن ينتقل من إدراك الصانع الحكيم

للإنسان والعالم، والإخلاص في عبادته واستحضاره في قلبه، ودوام ذكره ومراقبته له، وازدياد خشيته لربه وتعظيمه لجلاله، إلى الحد الذي يذهل فيه الإنسان عما حوله، وربما يترقى مع مواصلة التأمل، والذِّكْر، والحُبِّ، والشفافية الوجدانية إلى استشعار وجوده مع الملأ الأعلى، فيرى ما لا يستطيع أن يتحدث عنه أو يتكلم فيه. وهذه هي المرحلة التي يسميها الصوفية حالة "الشهود"، ويسميها ابن تيمية "الشهود الصحيح"[1] ولا شك في أنَّ هذه المرحلة لا يصلها إلا خاصة الخاصة من المؤمنين.

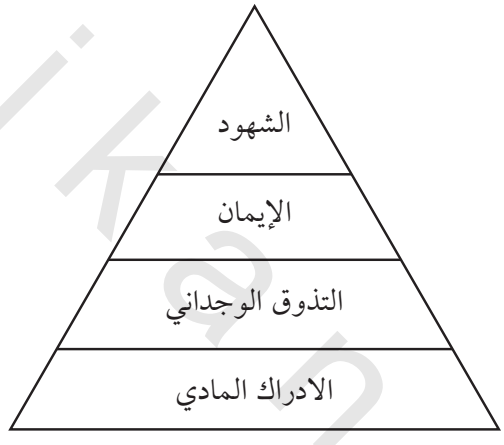

مستويات التفكر

ولمالك بن نَبِي فكرة لطيفة في التمييز بين البناء والتكديس، وذلك في حديثه عن البناء الحضاري؛ إذ يتحدث عن العالَم الإسلامي الذي بقي دهراً طويلاً خارج التاريخ، لكنه انتبه في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، على صيحات إصلاحية تدعو إلى النهوض الحضاري. لكن جهوده في السعي إلى ذلك اكتفت باستيراده منتجات الحضارة من الآخرين، والحضارة

(١) ابن تيمية، **مجموعة الفتاوى**، مرجع سابق، توحيد الأولوهية، الجزء الثاني، ص ٢٢٤.

obeikan.com

في حقيقتها منتجات مادية لها روحها فكرها وأدواتها وأنظمتها، التي لا تباع ولا تعار؛ لأنَّها تمثل الخصائص الذاتية للحضارة وللمجتمع الذي يبني تلك الحضارة. والمجتمع الذي يستورد المنتجات مع فكرها وروحها يكون قد فقد هويته الحضارية، وأصبح امتداداً للمجتمع الذي استورد منه منتجاته، أما المجتمع الذي يستورد منتجات الحضارة دون روحها وفكرها، فإنه يقوم بتكديس هياكل لا روح لها، وتجميع أكوام من الأشياء لا فكر فيها.

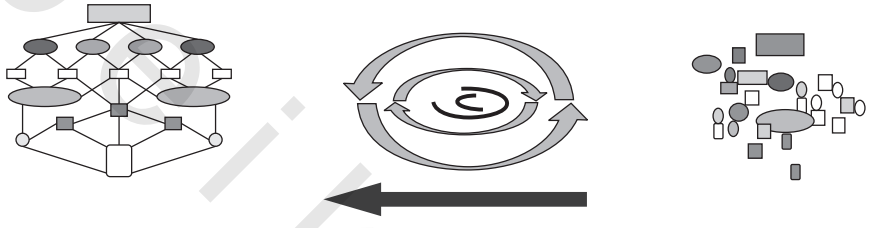

حقائق وبيانات جزئية متفرقة — عملية تنظيم وبناء وتكامل — بناء معرفي منظم ومتكامل

من التكديس إلى البناء

إنَّ الحضارة في كل مجتمع -في رأي مالك بن نبي- هي التي تلد منتجاتها، وتطبعها بروحها وفكرها، والعالم الإسلامي لم يتمكن من بناء حضارة، لأنَّه اقتصر على تكديس المنتجات المادية.

وبناءُ الحضارة عند مالك بن نبي يتم وفق معادلة تتفاعل فيها ثلاثة عناصر هي:

- الإنسان، بما يمثله من طاقات الفكر والإبداع.
- والتراب الذي يمثل الإمكانات المادية والاقتصادية.
- والوقت الذي يتم فيه نمو الخبرة وإنضاجها.

ولا يتم التفاعل بين هذه العناصر الثلاثة إلا بعامل مساعد هو الشعلة الروحية التي تتمثل بقوة العاطفة، وطاقة الوجدان.[1]

(١) ابن نَبِي، مالك. **شروط النهضة**، دمشق: دار الفكر، ١٩٨٦، ص ٦٣.

obeikan.com

مكونات البناء الحضاري عند مالك بن نبي

فالبناء الحضاري في المجتمع يتم عندما يقوم: عالم الأشخاص بإبداع عالم الأفكار التي يستخدمها الأشخاص في إنتاج عالم الأشياء. وكل الأشخاص يموتون، ومعظم الأشياء تبلى وتتضاءل قيمتها، أما الأفكار فمنها الحيّة التي لا يستغنى عنها مهما مر عليها الزمن، ومنها الميِّت' التي يمكن الاستغناء عنها دون أيّ خسارة، ومنها المميتة التي لا بد من التخلص منها.

إنَّ أيَّ عالَم من هذه العوالم الثلاثة ليس عالَماً واحداً متجانساً، فعالَم الأشخاص هو عالَم السياسيين، وعالم التجار، وعالَم الإعلاميين، إلخ؛ وعالَم الأشياء هو عالَم الأطعمة، وعالَم المساكن، وعالَم السيارات، وعالَم الفضاء، إلخ؛ وكذلك فإنَّ عالَم الأفكار هو عالَم الفقه، وعالَم الاقتصاد، وعالَم التاريخ، وعالَم الفنّ، إلخ. وكل عالَم من هذه العوالم هو -من ثَمَّ- أبعد ما يكون عن الانسجام والتجانس، بل هو أقرب في كثير من الأحيان إلى التناقض الفكري وصراع المصالح. فهل ثمة وسيلة للنظر في "بناء فكري" يتجاوز التناقض والاختلاف، ويكشف عن أفكار تجد لها القبول والانتشار على نطاق واسع ضمن هذه العوالم، في نطاق جغرافي محدد

يمكنك التفكير في علاقة العوالم الثلاثة ببعضها عندما تحاول التمييز بين طريقة الناس في تقدير قيمة كتاب محدد. فبعض الناس يحرصون على الحصول على الكتاب ووضعه في مكتباتهم؛ لأنَّه مجلد كبير يوحي بالمهابة ويستحق شكلُه الصدارة. وآخرون يحرصون على الحصول على الكتاب؛ لأنَّ مؤلفه عَلَمٌ مشهور، له عندهم قَدْرٌ ومكانة، وصنف ثالث يحرص على الحصول على الكتاب لا لحجمه وشكله، ولا لاسم مؤلفه وشهرته، وإنّما لموضوعه وأفكاره.
ويمكنك الآن التفكير في مثال آخر يبين العلاقة بين العوالم الثلاثة، وتفاوت طرق تقدير النَّاس لكل منها.

ونطاق تاريخي محدد؟ وما الخصائص التي لا بد أن تتمتع بها الأفكار التي تجد هذا القدر من الانتشار ومن ثم التأثير والفاعلية؟

ونختم التنويه بجهود مالك بن نبي بإشارته إلى واحد من الفروق اللطيفة بين العلماء من جهة والمثقفين من جهة أخرى، فعمل العلماء ينتهي بإنشاء الأشياء وفهمها، وعمل المثقفين يستمر في تجميل الأشياء وتحسينها.

وفي محاولة بيان مستويات الفكر وتوزع قدراته بين الناس نجد أن من السهل تمييز الإنسان الذي يتخصص في عِلْم معين، فيقال عنه إنَّه **متخصص** في ذلك العلم، وإذا تعمق في تخصصه، وأَحاط به، وبدأ يُبدع فيه، ويضيف إليه، ويَحُلُّ مشكلاته، فيمكن أن يقال عنه إنَّه **عالِم** في ذلك التخصص. وقد يلمّ العالم المتخصص بقدر من العلم في تخصصات أخرى قريبة من تخصصه وضرورية له، ولكن لا يشترط في العالم المتخصص عادة أن يكون قادراً على الحديث في المسائل العامة خارج إطار تخصصه.

ومن الناس من يكون صاحب تخصص ويكون عالماً في تخصصه، ومع ذلك فإنّ لديه من الاهتمامات الأخرى، اللغوية أو الفنية أو السياسية، وقدراً من المعرفة والاطلاع، والقدرة على التفكير والحديث في المسائل العامة، فيوصف هذا الشخص بأنه **مثقف**. وإذا كان العالم المتخصص يصل إلى هذه الصفة عادة بالدراسة الأكاديمية المنتظمة، والبحث المنهجي المتخصص، فإنَّ المثقف يبني قدراته الثقافية في الغالب بجهود ذاتية من قراءات ومحاورات مع الآخرين. ولذلك فإنه قد يبني ثقافته دون أن يكون عالماً متخصصاً في أي موضوع محدد.

ويميل بعض الباحثين إلى الحديث عن الفكر والثقافة بوصفهما مفهومين متقاربين إلى درجة التطابق، فيعطفون الثقافة الإسلامية على الفكر الإسلامي في مواقع كثيرة، ونأخذ مرجعاً واحداً مثلاً على هذه الظاهرة، ولو تتبعناها لوجدنا مصداق ذلك في أمثلة كثيرة أخرى. أورد المرجع المشار إليه النصوص الأربعة الآتية في أماكن متقاربة: "كان لا بد من بيان ... على صعيد الفكر

الإسلامي والثقافة الإسلامية."[1]، "نحاول... الحديث عن أبرز خصوصيات الفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية."[2]، "ليس من صواب الرأي، بل هو إلى الجهل بخصوصيات الفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية أقرب"[3]، "حديثنا الموصول عن أبرز خصائص الثقافة الإسلامية والفكر الإسلامي."[4]

كما يميل بعض الباحثين إلى الكتابة عن الفكر أو عن الثقافة بالمضامين نفسها. وستجد ذلك في عناوين الكتب الموجهة لمقررات تعليمية جامعية، في "الفكر الإسلامي" أو "الثقافة الإسلامية" فالمضمون في غالب الأحيان مضمون واحد. ويبدو أن الأمر يرتبط بالعنوان الذي يأتي فيه الحديث، مقالة أو كتابة، فإن العنوان عن الثقافة زاد ذكر كلمة الثقافة مع قليل من ذكر الفكر، وإن كان العنوان عن الفكر والتفكير، زاد ذكر الفكر مع قليل من الثقافة.

ما محور التمييز بين الفكر والثقافة؟!

وما علاقة العمق والسعة في تحديد الفرق بين الفكر والثقافة؟

وما علاقة القدرة على العطاء، والقدرة على الاكتساب في توضيح هذا الفرق؟

كيف تتحول الثقافة إلى فكر، وكيف يتحول الفكر إلى ثقافة؟

ومن الناس من يكون صاحب علم متخصص، ولديه بعض الفكر، وربما بعض الثقافة، لكنه يوظف ذلك كله في محاولة التأثير في أكبر عدد من الناس، لينقلهم مما هم عليه من حالة فكرية أو سلوكية إلى حالة أخرى يدعو إليها، ويشجع على الالتزام بها، ويمارس من أساليب متنوعة من محاولات التأثير؛ كتابة، وخطابة، وحديثاً، وحواراً، إلخ. وهو يحرص على اللقاء بالناس

(١) زرزور، عدنان. **طبيعة التفكير والتجديد في الثقافة الإسلامية**، عمان: دار الأعلام، ٢٠٠٧، ص ٧.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٩.

(٣) المرجع نفسه، ص ٣١.

(٤) المرجع نفسه، ص ٣٣.

في أماكن وجودهم، وعلى التفاعل المباشر معهم. والصفة التي تغلب على هذا الشخص هي **الداعية**. فهو يدعو الناس إلى الفكر الذي يتبنّاه، أو فكر الحزب أو الجماعة التي ينتسب إليها، أو يدعوهم إلى أنماط معينة من السلوك الأخلاقي أو الاجتماعي. ولا يشترط أن يكون الفكر الذي يدعو إليه من إنتاجه، لكنه يتبنّاه ويدعو إليه. وقد تكون القضايا التي يدعو إليها الداعية قضايا جزئية محددة تتناول سلوك الأفراد، وتختص ببعض الفضائل، وتحمل قدراً من الحرارة والرصيد العاطفي. وقد تكون قضايا عامة تختص بالواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، والرغبة في حل المشكلات التي يعاني منها هذا الواقع، والأمل في تغييره نحو الأحسن، وتكون رؤيته التغييرية واضحة ومحددة وجديدة وطموحة، وعندها يطلق على هذا الشخص وصف **المصلح**.

وتبقى فئة من الناس في أقلها عدداً بالمقارنة مع الفئات المشار إليها سابقاً، يكون لأحدهم علم متخصص، وربما يكون لديه بعض الثقافة، وبعض الأفكار الإصلاحية، لكنَّ الذي يتميز به عن غيره هو أنه يقصر اهتمامه على بناء رؤية نظرية للمسائل والقضايا العلمية والعملية. ففي حين يبحث العالم المتخصص في المسائل الجزئية المحددة للعلم، فإنَّ هذا الشخص يعيد وضع الجزئيات في صياغات فكرية كلية، ويطرح أسئلة عامة، وينتقد الصياغات الفكرية السائدة، ويكتشف التناقضات الكامنة فيها، ويطرح أنظمة مفاهيمية جديدة، وبدلاً من الحديث عن مشكلات مجتمع محدد أو بيئة محددة، فإنَّ اهتمامه ينصرف إلى المجتمع الإنساني والبيئة الكونية... مثل هذا الشخص يسمى **الفيلسوف**. وأهم ما يميز الفيلسوف هو روحه النقدية التي تجعله يمارس الشك فيما ألف الناس مما يعدونه من الحقائق، ومن ثم فهو يكثر التأمل والبحث وإعادة النظر في كل ما يقرأ ويسمع.[1]

إنَّ الأشخاص الذين يحملون هذه الأوصاف التي ذكرناها: العالم – المتخصص، والمثقف، والداعية – المصلح، والفيلسوف، موجودون في كل

(١) الطويل، توفيق. **أسس الفلسفة**، القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٧٦، ص ٢١٧.

مجتمع، ولكل منهم موقعه وضرورته. لكن هذه الأوصاف ليس بينها حدود فاصلة ولا تراتبية تفضيلية، ومن السهل أن نميّز أشخاصاً يملكون مستويات متفاوتة من خصائص كل فئة. وثمة أوصاف أخرى ربما تقع ضمن هذه الفئات أو خارجها، فللأديب، والباحث، والكاتب، والمحلل، والمستشار، والخبير، والفنِّي... صفات تلحق بأي شخص من الفئات المذكورة، أو تميز فئة قائمة بذاتها.

وقد تَبَيَّن لنا أنَّ الفكرَ هو المضامين المميِّزة التي تَصِف حالةَ الشخصيَّة التي نُسمِّيها **المفكِّر**، ومع ذلك تكون بعض هذه المضامين مشتركةً -في مستوياتٍ متفاوتة- مع الشخصيات الأخرى: العالم والمثقف والفيلسوف...إلخ. لكنَّ هذه المضامينُ تكون واضحةً ومستقرةً لدى كل شخصية من هذه الشخصيات، حتى إنَّك تستطيع أن تصفَ البنية الفكرية، أو البناء الفكري، في كل شخصية منها، وتستطيعُ أن تتحدَّث عن درجة الغنى والثراء الفكري لدى أمثلةٍ ونماذجَ وأسماء من أيَّة فئةٍ من فئات الشخصية المشار إليها، فتقارن مثلاً بين مستويات العمق والتنوع في الغنى الفكري بين عدد من المثقفين، أو بين عدد من العلماء... إلخ.

وإذا جاز لنا أن نتحدَّث عن الغنى الفكري، لماذا لا يجوزُ لنا أن نتحدَّث عن الفقر الفكري، أو الفراغ الفكري، أو الإفلاس الفكري، أو العقم الفكري... لنَصِفَ بذلك حالةَ الضعف الفكري الذي يتَّصفُ بها فرد من الأفراد، أو فئة من الناس، أو مجتمع من المجتمعات، أو جيل من الأجيال...؟!

ولنجرِّب فحصَ المضامين الفكرية لشخصيات ذات أثر ملموس في المجتمع المعاصر، ربما يكون أثرُها أكبر من أثر العلماء والمثقفين والفلاسفة؛ من هؤلاء مثلاً العاملون في قطاعات الاقتصاد والإعلام والسياسة. ما المضامينُ الفكرية لشخصيةٍ اقتصادية مَلَكَت الملايين، وقَفَزَت إلى مواقع صنع القرار في بعض المؤسسات، أو تحكَّمت في الأسواق، وربَّما سَخَّرَت لنفوذها فريقاً من الإعلاميين، وربَّما أخْضَعت لمصالحِها نخباً من السياسيين؟

لنتذكَّر أمثلةً من الإعلاميين الذين لا يعدو نصيبُهم من الفكر أن يكون

ألفاظاً من المدح أو الهجاء! يَمْنحُونَها وَفْق عمليات الدفع أو المنع، ومقادير هذه العمليات! ما المضامين الفكرية التي تحرك هؤلاء؟!

ولنتذكَّر ما يحدث بعد التحولات الكبيرة في المجتمع من قيام عشرات الأحزاب السياسية، يتجمع في كلٍّ منها عشرات الشخصيات، ثم لا يلبثُ كل حزب أن يتشظَّى إلى عدة أحزاب. ما الخرائط الفكرية التي تتوزع عليها هذه الأحزاب؟ وتَبْنِي على أساسها برامِجَها الحزبية التي تتقدم بها إلى الجماهير في مواسم الانتخابات؟ وما مصير هذه الأحزاب بعد ظهور نتائج الانتخابات؟!

إنَّ ظاهرة الإفلاس الفكري لدى الغالبية العظمي من شخصيات المال والاقتصاد والأعمال، وتجار الإعلام، وصالونات السياسية، تكاد تمسح من ذاكرتنا أسماءً مذكورة، وشخصياتٍ مرموقةً، في الاقتصاد والإعلام والسياسة، عُرف كل منها برصيد من الفكر، الذي يتَّصف بقدر من الوضوح والنضج والاستقرار. لكنَّ التحدِّي الذي أُواجِهُ به قارئ هذه السطور أن يسمِّيَ ثلاثةً من أسماء الشخصيات في بلده من أعلام الفكر الاقتصادي، وثلاثة من أعلام الفكر الإعلامي، وثلاثة من أعلام الفكر السياسي! لعلّ من ينجح في ذلك يتبيَّن له أنَّ الحديث عن ظاهرة الإفلاس الفكري، حديث مبالغٌ فيه، أو هو حديث خرافة يا أم عمرو!

ثالثاً: حوار العلم والفكر

وإذا كان حديثنا في هذا المقام عن الفكر، فنأمُل أن لا يخطر ببال القارئ أنَّ الإعلاء من شأن الفكر هو تقديس للأفكار التي يأتي بها الإنسان، فحديثنا هنا عن الفكر الإنساني الذي هو مظنة الصواب والخطأ، ولكننا نأمُل كذلك أن نلتمس ما كان صواباً من الفكر، وفق المرجعية الإسلامية التي نتبنّاها، فالصوابُ من الفكر صوابٌ؛ لأنَّه حقٌ في ذاته، ولأنَّه -في مجال الفكر الإسلامي- موافق لما كان معلوماً من الدين بالضرورة، ولأنَّه فهمٌ صحيح في ذاته، وعميق في مستواه، ومفيد عند تطبيقه.

ونأمُل كذلك أن لا يكون حديثنا عن الفكر عزوفاً عن الحديث عن العلم، فبعض طلبة العلم، لا سيّما العلم الشرعي، يفضّلون استخدام مصطلح العلم، والدخول إليه من أبوابه المألوفة في متون العلم وكتب التراث، بدءاً من الحديث عن فضل العلم والعلماء، والحث على طلب العلم. وبعض طلبة العلم الشرعي يرددون أنَّ العلم هو ما قال الله تعالى، وما قال رسوله ﷺ. وبعضهم ينقلون عن أساتذتهم ومن كتبهم روح التعصب لفرع من فروع العلم، فيرون أنَّ أشرف العلوم هو علم الفقه، أو علم الحديث، أو علم التفسير...إلخ، وفي ذلك يتنافس المتنافسون. والأَوْلى أن يكون شرف العلم ما كان العلمُ من أجْلِه؛ من ارتقاء في مقدار الصلة بالله والنفع لخلق الله، ويزداد شرف أيِّ علم عندما تقوى الرغبة فيه، وتلحُّ الحاجة إليه.(١)

وفي المقابل فإن بعض المثقفين أو من يدّعون الثقافة، وبعض المفكرين أو من يدّعون الفكر، يظنُّون أن التخصصات العلمية سواءً كانت في علوم الشريعة أو العلوم الطبيعة أو حتى العلوم التطبيقية هي سجون علمية لا تتعامل إلاّ مع جزئيات العلم وتفاصيله، بينما تَحْرِمُ من يكون في داخلها من أنسام الثقافة ورياح الفكر، التي يكون معها الاهتمام بقضايا المجتمع والأمة، والإسهام في جهود إصلاح الواقع وتطويره. وإذا كان في بعض الظن حق، فإننا لا ينبغي أن ننسى أسماء علماء بارعين في علومهم، وهم في الوقت نفسه في قمة الثقافة أو في قمة الفكر.

والذي نؤكِّد عليه هنا أنَّنا لا نقارن بين العلم والفكر، لنعطي الأفضلية لأحدهما على الآخر، مثلما أنَّنا لا نقارن بين الفكر والثقافة، أو بين الفكر والدعوة، أو بين الفكر والفلسفة، إلخ، لنعطي الأفضلية للفكر على الثقافة أو الدعوة أو الفلسفة، أو أيّ من العناوين الأخرى. ويمكننا أن نقول: إنَّ العلم فكر، وإنَّ الثقافة فكر، وإنَّ الفلسفة فكر، فكل ذلك فكر إنساني، وكلّه نتيجة للتفكير

(١) النملة، علي بن إبراهيم. **الفكر بين العلم والسلطة: من التصادم إلى التعايش**، الرياض: العبيكان للنشر، ط٢، ٢٠٠٧م. ١٢-١٦.

الذي يقوم به الإنسان، ولكنه فكر بمستويات مختلفة وبمواصفات مختلفة، وربما يكون كلّه حقاً، ونجتهد في أن نتعامل معه بوصفه فكراً إسلامياً.

وليس لدينا ما يسوِّغ رفض القول الآخر الذي يرى أنَّ الفكر علم، وأنَّ الثقافة علم، وأن الفلسفة علم، على أساس أنَّ العلم في سياق المعرفة البشرية هو ما عَلِمَه الإنسان في مستوى من المستويات أو موضوع من الموضوعات. وجاء عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في نهج البلاغة: "... وَلاَ عِلْمَ كالتفكُّر، ... وَلاَ شَرَفَ كالعِلْم..."[1]

والتمييز بين العلم والفكر على أساس مدى توافر المنهج في أيّ منهما لا يفيد كثيراً؛ لأنَّ المنهج يمكن أن يكون ادعاءً لا حقيقة، وأنَّ المنهج قد يكون صراطاً مستقيما إلى الحقيقة، وقد يكون طريقاً إلى الضلال. والتمييز بين المفهومين على أساس مدى توافر الدليل، لا يفيد كثيراً؛ للسبب نفسه، فقد يكون الدليل واضحاً في تأييد العلم أو تأييد الفكر، وقد يكون وهماً لا قيمة له في تأييد أيّ منهما.

وهذا لا يعنى بالضرورة التطابق بين مفهومي العلم والفكر؛ لأنَّ مهمة التمييز بينهما تقف عند المصطلح وليس المفهوم، فمصطلح العلم قديم، ونقصد به ذلك القدر من المعرفة الذي يكتسبه الإنسان عن موضوع معين، بصورة مقصودة، وهدف محدد، ويتصف بقدر من التنظيم، ويتم بمنهجية محددة، وهذا العلم يمكن أن يطلق على علم أصول الفقه، أو علم الكيمياء التحليلية، سواءً بسواء. وعلى هذا يكون للعلم مؤسساتُه ومدوناتُه وبرامجُه ومناهجُه. ولا يسمى علماً، في الاصطلاح، ذلك الذي يلتقطه الفرد من معلومات غير منظمة وغير هادفة، تأتيه من طرق شتى: سماعاً أو قراءة، أو نتيجة تفكير سطحي أو عميق.

---

(١) ابن أبي طالب، علي (أمير المؤمنين رضي الله عنه). **نهج البلاغة**، مختارات الشريف الرضي، شرح: الإمام محمد عبده، بيروت: دار المعرفة، ج٤، ص ٢٧.

أما الفكر فهو مصطلح حديث نقصد به مجموع المدركات والآراء والأحكام، التي يصل إليها التفكير البشري، سواءً كان عن طريق التعلّم المنهجي المؤسسي أو كان نتيجة التصورات أو العمليات الذهنية الداخلية التي يقوم بها الإنسان حول موضوع معين، وذلك بهدف فهم الموضوع وتحليل عناصره وأسبابه ونتائجه، وعلاقة هذا الموضوع بالواقع الراهن، وما يمثله من مشكلات، أو فرص أو تحديات، وما يلزمه من اقتراحات ومعالجات.[1]

وإذا كان العلم يهتم بالموضوع، من حيث هو، وينشغل في بيان عناصره وجزئياته وتنظيم ما يتوافر عنه من معلومات ومعارف تفصيلية، فإنَّ اهتمام الفكر ينصب على علاقة الموضوع بالواقع، وسبل معالجة الموضوع من أجل تحسين الواقع.

ولا نملك مبرراً لحصر مفهوم العلم في علوم الشريعة وفروعها. إننا نستطيع أن نتعلّم علم أصول الفقه، وعلم الكيمياء التحليلية ضمن رؤية كلية إسلامية، في جامعة إسلامية في بلد إسلامي، أو في جامعة إسلامية أوروبية أو أمريكية. ونستطيع أن نتعلّم العِلمين ضمن رؤية كلية غير إسلامية، في جامعة من جامعات العالم الإسلامي، أو في جامعة أوروبية أو أمريكية.

قد يكون من المناسب في هذا المقام تذكر أسماء شخصيات عرفت بالعلم والفكر في الوقت نفسه. ولتكن أمثلة هذه الشخصيات متنوعة من حيث التخصص العلمي في علوم الشريعة (التفسير والحديث والعقيدة والفقه...)، أو العلوم الاجتماعية (الاقتصاد، والاجتماع، والتربية...) أو اللغوية (النحو والصرف والأدب والنقد...) أو الطبيعية (الجيولوجيا والكيمياء والفيزياء ...) أو التطبيقية (الطب والهندسة والزراعة...).

وعلى هذا الأساس نتساءل من هو المفكر؟

عندما يوصف شخص ما بأنَّه مفكر، فما الذي يعنيه ذلك الوصف؟ إنّ

(١) ربما يلاحظ القارئ أننا لم نحصر دلالة العلم أو الفكر في نص محدد بأقواس "..."، للتأكيد على أننا لا نقصد وضع تعريف "جامع مانع"، كما أشرنا إلى ذلك في مقدمة الكتاب.

ذلك لا يعني أن المفكر هو أيّ شخص يمارس عملية التفكير، فكل النَّاس يقومون بهذه العملية بوعي أو دون وعي، ومن ثمّ فكلُّ الناس يملكون فكراً. لكن وصف المفكر يطلق على الشخص الذي يمتلك بناءً فكرياً يتصف بالوضوح والانسجام والتكامل، والقدرة على إنتاج الفكر بصورة يتميز بها عن الغالبية العظمى من الناس، وتسمح بتسمية ذلك الشخص مفكراً. فأين هو موقع المفكر ضمن مجموعة الأشخاص الذي تطلق عليهم أوصاف أخرى ذات صلة مباشرة بالفكر؟

لكن السؤال الذي يلحّ في سياق هذا الحديث يختص بالمفكر، أين يقع **المفكر** من هذه الأوصاف؟ هل يقع ضمن فئة من هذه الفئات، أم يحتل موقعاً متميزاً مختلفاً تماماً عنها؟

هل تعرف أحداً يطلق على نفسه صفة المفكر؟ هل ثمّة فرق بين من يطلق على نفسه صفة مفكر، ومن يصفه غيرُه بهذا الوصف؟ استحضر أسماء عدد ممن يطلق عليهم وصف المفكر، وابحث عن تخصصاتهم العلمية، ونوعية إنتاجهم من الكتب والبحوث، وطريقة عرضهم للموضوعات التي يتحدثون عنها. ما الذي يميّز هؤلاء عن غيرهم من الأشخاص الذي يعدّون من النخبة المُفَكِّرة؟ ربما يمكنك الآن تحديد عدد من المواصفات الرئيسة للمفكر.

أول ما يخطر في البال هو أنَّ المفكر ربما يجمع كثيراً من صفات الفئات المذكورة، ولو بدرجات متفاوتة. فكثير ممن أعطيت لهم صفة المفكر بدأوا حياتهم الفكرية علماء متخصصين، لكنهم انتقلوا بعد ذلك من الانشغال بجزئيات التخصص العلمي، إلى القضايا العامة للمجتمع، وبدلاً من الانشغال بالمشكلات الآنِيَّة والملحَّة التي ينشغل بها المثقف في العادة، انتقلوا إلى وضع هذه المشكلات ضمن سياقها التاريخي والاجتماعي، لبناء فهم أفضل لها، وللبحث عن معالجات لأسباب المشكلات بدلاً من مظاهرها، ولتكوين رؤية كلية لجهود الإصلاح والتغيير المنشودة. لكن المفكر مع ذلك لا يتخلى عن الاهتمام بالواقع الذي يريد إصلاحه، وعن تقديم صياغات فكرية تشتبك مع الواقع القائم للوصول إلى الطموح المنشود. إن "إطلاق الوصف "مفكر" يعني تميّزاً في

الثقافة والاطلاع، والنزوع نحو الإصلاح والتطوير."[1]

ولا يبدو أنَّ ثمة علاقة مباشرة بين الهوية الفكرية للمفكر والتخصص العلمي الذي بدأ تشكُّله الفكري فيه. لكنَّ المفكر مثقف بالضرورة، ويمكن النظر إلى المشروع الفكري للمفكر على أنه مشروع إصلاحي، يتبنّاه المصلح، وربما يقترب من الفيلسوف في رؤيته الكلية وقدرته على اكتشاف المشكلات القائمة في الصياغات الفكرية والعملية السائدة، وفي بحثه عن حلول لها. كما يقترب من الفيلسوف في درجة القلق التي تنتابه في سعيه الدائم للفهم والتفسير، والنظر إلى الأمور من زوايا مختلفة. وهو بهذا القلق يبتعد عن العالم الذي يقف على المسائل اليقينية في علمه، وعن الداعية الذي يعرض أفكاره بثقة لا يخالجها شك، وحماس لا ينتابه تردد. لكن المفكر يندمج بصورة مباشرة في القضايا العامة للمجتمع، فيتميّز عن الفيلسوف الذي لا يفعل ذلك بالضرورة.

ونظراً لأنَّ كلاً من الفيلسوف والمفكر في الغالب يبدأ رحلته الفكرية في مجال محدد من العلم المتخصص، فإنَّ طبيعة هذا العلم تؤثر في اللغة التي يضع بها كل منهما صياغته الفكرية، وفي المنهجية التي يتّبعُها في هذه الصياغة. وربما يظهر ذلك واضحاً في الأعمال الفكرية لمفكرين من أمثال: إسماعيل الفاروقي (الفلسفة والأديان المقارنة) وإدوارد سعيد (الأدب المقارن)، وسيد قطب (اللغة والنقد الأدبي)، وعلي شريعتي (علم الاجتماع)، وطارق البشري (القانون والقضاء)...إلخ.

لقد اتبعنا -فيما سبق- في الحديث عن خصائص المفكر منهجاً نظرياً، تضمن تعرُّف الخصائص التي تطلق على فئات من الأشخاص. وربما نصل إلى النتيجة نفسها لو

لديك قائمة من أسماء عدد من الأشخاص، حاول أن تصنف هؤلاء الأشخاص ضمن ستِّ فئات: عالم، مفكر، داعية، مصلح، فيلسوف، مثقف. إذا وجدت صعوبة في التحديد الدقيق للفئة التي ينتسب إليها الشخص، فلا مانع في البداية من تصنيفه في فئتين أو أكثر، ثم تحاول التدقيق لوضعه في فئة محددة واحدة.

(١) النملة، علي بن إبراهيم الحمد. **الفكر بين العلم والسلطة: من التصادم إلى التعايش**. مرجع سابق، ص ٧٦.

اتبعنا منهجاً آخر، يحدد في البداية عدداً من الأشخاص الذين عرف كل منهم بصفة المفكر، ثم حللنا الخصائص الفكرية والعملية التي يتصف كل منهم بها. ولعل القراء الأعزاء يقومون بهذا التمرين، فيحدد كل منهم عدداً ممن يَعُدُّهم هو مفكرين ويقوم بعد ذلك باستخلاص خصائص المفكر.

أمثلة على كتب ينصح بقرائتها

التفكر من المشاهدة إلى الشهود: دراسة نفسية إسلامية

الكتاب دراسة نفسية مبسطة للتفكّر من منظور إسلامي، حاول فيه المؤلف توضيح قيمة التفكر العبادية من وجهة نظر علم النفس الحديث، ومناقشة قيمة التفكر في توجيه سلوك الإنسان وصياغة دوافعه وعاداته، وعلاج اضطراباته وإثراء حياته النفسية والروحية.

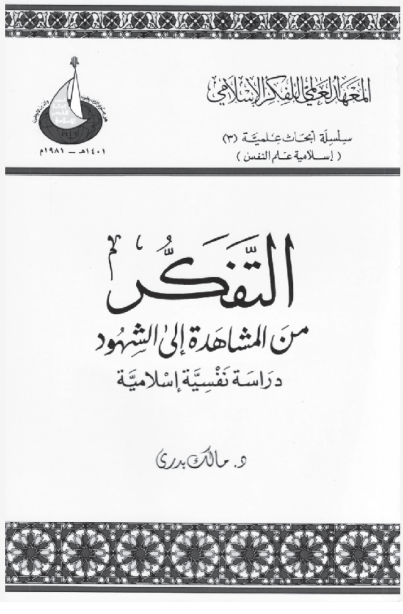

في هذا الكتاب الصغير، بيان تفصيلي لعلاقة الفكر بالتفكير والتفكر والتدبر والتذكر، وهي دراسة تفصيلية تجمع إلى النصوص الدينية معطيات التراث الإسلامي وعلم النفس المعاصر ونظريات التعلم، والفروق بين الأفراد في درجات التفكر، وعلاقة التفكير باللغة، وعلاقة التفكر بما هو معروف عن الطريقة العلمية، في بحوث العلوم المادية والتطبيقية.

مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي

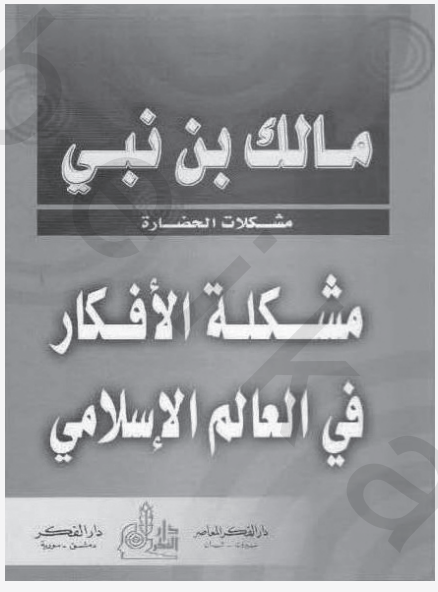

الكتاب محاولة لتبين "الصعوبات التي يتخبط فيها المجتمع الإسلامي في مواجهة مشكلاته الحاضرة في كلا الميدانين: الميدان الأخلاقي، وميدان الأفكار الفعالة. فتناولنا بالتحليل أصل الصعوبات التي تتداخل فيها الأفكار المتناقضة، وعندما حركنا هنا مشكلة الأفكار أردنا أن نبيّن وزنها في التاريخ، في مصائر البشرية."

والكتاب مليء بالمفردات التي تميز بها المؤلف في كتاباته الفكرية: عالم الأفكار، الأفكار الحية، الأفكار الميتة، الأفكار المميتة، الأفكار الفعالة، الأفكار المتناقضة، فكر النخبة، مشكلة الأفكار، الأفكار المخذولة، انتقام الأفكار، خيانة الأفكار، الأفكار الأساسية والأفكار المتداولة، الأفكار الموروثة والأفكار المكتسبة، الوراثة في ميدان الأفكار، التنفس الفكري، الأفكار المطبوعة والأفكار الموضوعة، الفكر القيدي، الفكر الكمي، جدلية الفكرة – الشيء، صراع الفكرة – الوثن، الصراع الفكري، عمر الفكرة، النظام الفكري، موت الأفكار، علاقات الأفكار.

تكوين المفكر

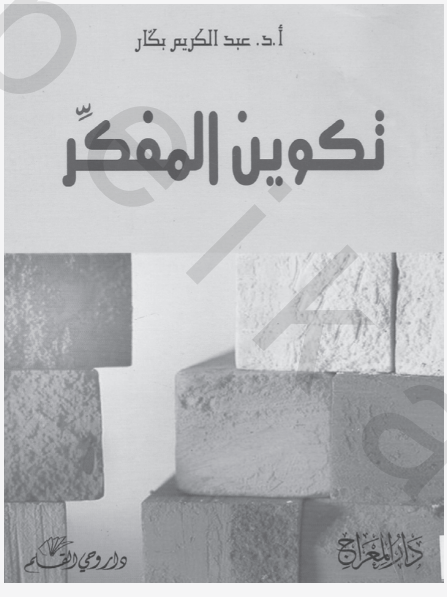

قد يوحي عنوان الكتاب بأنه دليل عمل لأي شخص يريد أن يصبح مفكراً، أو لأيّة مؤسسة تريد أن تتخصص في إنتاج المفكرين؛ ومن ثم فهناك آلية واضحة ومقننة للوصول إلى هذا الهدف. لكن المؤلف يحذر من هذا الفهم المتسرع، ويؤكد أن المفكر يتكون بطريقة تلقائية وغير مقصودة. ومع ذلك فإن من المفيد أن يعتني الشخص بنفسه "من خلال جهوده الحثيثة في القراءة والتأمل والبحث والكتابة والحوار" حتى "يصبح مع الأيام صاحب رؤية خاصة وطرح متميز"، ويتصف بشيء مما "يشتغل عليه المفكرون من العناية بإصلاح الشأن العام ومحاولة فهمه وتحليل أسبابه والعمل على الارتقاء به." يحاول المؤلف أن يميز خصائص كل من المفكر، والفيلسوف، والمثقف، والعالم، والداعية، والمصلح، وأن يوضح معنى التفكير، وأنواعه، ومستوياته، ومعيقاته، وعلاقته باللغة والإبداع.

obeikan.com

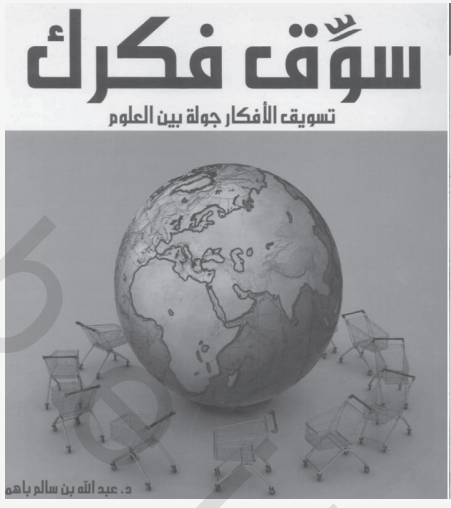

القراءة الفكرية

هذان كتابان عن الفكر، لكل منهم غرض مختلف عن الآخر. الدكتور علي بن إبراهيم النملة أستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض متخصص في علم المكتبات المعلومات. والدكتور عبد الله بن سالم باهمام مشرف تدريب في إدارة التدريب التربوي بالرياض، ومتخصص في إدارة الأعمال والإعلام (التسويق).

الكتاب الأول في الأصل مجموعة مقالات قصيرة في الجرائد اليومية، يجمعها خيط واحد عبَّر عنه عنوان الكتاب. والكتاب الثاني كتاب منهجي متماسك في محتواه وفي الغرض منه، وهو مادة للتدريب.

الكتابان يتحدثان عن الفكر، بتفاصيل كثيرة، ولكن لكل منهما فكرة مركزية يريد المؤلف أن يقدمها للقارئ، وقد لا تكون الفكرة مبسوطة في عبارة من عبارات الكتاب بصورة مباشرة، وإنما قد تكون متضمنة بصورة غير مباشرة، تكشف عنها "القراءة الفكرية" للكتابين. القراءة الفكرية هي قراءة القارئ، وقد لا تكون متطابقة بالضرورة مع فكرة المؤلف.

obeikan.com

رابعاً: حركة الفكر وفكر الحركة

حاولنا أن نوضح مضمون الفكر والتفكير، والخصائص التي يتصف بها المفكر، في سياق الخصائص التي تتصف بها شخصيات أخرى، ضمن الحقل الدلالي للخصائص، التي تلتقي أو تتقاطع مع قضايا الفكر وخصائص المفكرين. وفي هذا السياق بدأنا في تحديد مجال الاختصاص العلمي وموقع المفكر منه. ولاحظنا أن المفكر ربما يبدأ عمله الفكري بالتبحر في ميدان تخصصه، ثم يتوسع في الإلمام والاهتمام بتخصصات أخرى، ويأخذ في صياغة فهمه لبعض عناصر المعرفة العلمية المتخصصة، لتكون مادة ثقافية عامة، ثم يبدأ في عملية الترقي بهذه الثقافة لصياغة مفاهيم ورؤى فكرية تتصف بالتحديد والتركيز والعمق، وتصوغ منها خطاباً فكرياً محدداً يقدم إجابات عن الأسئلة وحلولاً للمشكلات، بصورة تختلف جوهرياً عن ألوان الخطاب السائد.

لكن التشكل الفكري عند الفرد لا يحدث بصورة مستقلة عن الظروف التي تتشكل فيها نفسية الفرد وعقليته. فثمّة عوامل عديدة تسهم إيجاباً أو سلباً في هذا التشكل. ويتحدث التربويون وعلماء النفس عن أثر العوامل النفسية والبيئية على شخصية الفرد والطريقة التي تتشكل فيها هذه الشخصية، ولا شك في أنَّ بعض الأفراد يتأثرون أكثر من غيرهم بهذه العوامل، ويتأثرون بهذه العوامل في بعض مراحل النمو أكثر من مراحل أخرى. ونظراً لأنَّ المفكر أو الشخص الذي يمتلك قدرات فكرية محددة لا يولد حاملاً لهذه الصفة، وإنَّما يبدأ كما يبدأ أيُّ فرد بشري: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨ ﴾ [النحل: ٧٨]، فإنَّه يكون قد تأثَّر في مراحل تَشَكُّله الفكري بعوامل متعددة، فالأسرة توفِّر للفرد بيئة نفسية واجتماعية تؤثِّر في هذا التشكُّل؛ إذ يتشرب، بوعي أو دون وعي، مشاعر الانتماء للدين والطائفة والمذهب، وتصبح هذه المشاعر فيما بعد حقائق فكرية يجري تبنِّيها بقوة أحياناً، وتستنفر من أجلها الحجج والأدلة الفكرية. وقد تؤثر هذه البيئة سلباً

على الفرد، وتحدث رد فعل عكسي، حين تتولد لديه كراهية لما عرفه في بيئته من أفكار، ويبحث جاهداً لنقضها، والتبرؤ منها.

ولا شك في أنَّ التنشئة الأسرية لا تكون على صورة واحدة، فبعض الأسر تحمل أفكاراً محافظة، وتمارس التشدد في التأكيد على أهمية الانسجام الفكري ضمن العائلة، ولكن بعض الأسر تمارس قدراً من الحرية، وتوفر أجواءً متنوعة من الخبرات التي تعطي للفرد فرصة لتكوين أفكاره بنفسه. وبعض الأسر توفر بيئة فكرية غنية، تتمثل في مكتبة ذات كتب قيمة، وعلاقات بقيادات فكرية متنوعة، ولا شك في أن مثل هذه البيئة تسهم في التشكل الفكري للفرد الذي نما فيها.

وإضافة إلى العوامل المتمثلة بأفكار الأسرة والعائلة، فإن التعليم المدرسي يتضمن أيضاً عوامل نفسية تسهم في تنشيط التشكل الفكري أو تحبطه. وفي الدراسة الجامعية فإن الفرصة المتاحة لطالب معين أن يدرس مادة مع أستاذ متميز، ربما تكون عاملاً حاسماً في التشكل الفكري لذلك الطالب.

وتكون خبرات الحياة التي يمر بها الفرد في حياته سبباً في البناء النفسي للفرد بصورة معينة، يكون فيها متفائلاً أو متشائماً، فتتلون أفكاره بالتفاؤل أو التشاؤم. ولا شك في أن روح التفاؤل أو التشاؤم تشكل عند الفرد والجماعة أفكاراً حاسمة تكون الأساس في اتخاذ قرارات مهمة، ويكون لها ما بعدها من نتائج إيجابية أو سلبية.

ويؤثر انتماء الفرد إلى مدرسة فكرية أو حركة ذات مرجعية فكرية على صورة البناء الفكري للفرد. ولذلك من المهم فهم العلاقة بين الحركة بالفكر، وكيف يكون الفكر عنصراً في بناء الحركة، وذلك سعياً لفهم ما بين الفكر والحركة من المشترك في المكونات، ومن التفاعل في الوظائف.

ومن الملاحظ أن بعض المنتمين للحركات الإسلامية أو الجماعات الإسلامية يشعرون بشيء من الضيق عندما تذكر الحاجة إلى الفكر المتميز

القادر على تحقيق التغيير المنشود، وتصبح ألفاظ العقيدة والدعوة والعلم التي يمتلئ بها خطاب الحركة وأدبياتها ومناهج تربية أفرادها، مصطلحات إسلامية أثيرة، بينما يرون في لفظ الفكر مصطلحاً دخيلاً يراد به أن يحلّ محل تلك المصطلحات الإسلامية الأثيرة، ويرون أن شأن الفكر والمفكرين هو شأن التنظير الذي لا يحمل هَمَّ الواقع، ويجلس في الأبراج العاجية المنبتَّة عن المسائل العملية والمعاناة اليومية التي تصبغ حياة الحركة وأفرادها. مما ولَّد الحاجة إلى التساؤل عن علاقة الفكر بالحركة، وعلاقة الحركة بالفكر، ومن ثم الحديث عن "فكر الحركة وحركة الفكر."

ونستطيع أن نقرر سلفاً صعوبة تصور حركة لا فكر لها، ويبقى السؤال عن نوع الفكر الذي تتبناه الحركة، وحضور المفكرين في صفوفها، وقيمة الفكر في جهودها، وبرامجها في تنمية الفكر وتجديده وتوسيع آفاقه، لتمكين الحركة من الفهم السليم للتحديات والتطورات المتلاحقة، وتطوير البرامج اللازمة لمواجهتها. ومع أننا نستطيع أن نقول إن الفكر هو حركة العقل، حين يبدع عقل المفكر فكرته، وبذلك يكون الفكر والحركة مفهومين متلازمين، فإننا نستطيع كذلك أن نتصور وجود أفكار تفتقد الحركة بعد إنتاجها، لغياب من يحملها ويتحرك بها، وفي هذه الحالة فلن يكون لهذه الأفكار من القيمة والأهمية ما يمنحها الحركة المنشودة في التأثير والفاعلية والتغيير.

لقد أصبح لفظ الحركة لفظاً أثيراً في جهود الإصلاح في العالم العربي والإسلامي منذ مطلع القرن العشرين، لظهور حركات إصلاحية تهتم بالشأن الإسلامي العام، لا سيما بعد أن وصل حال الأمة إلى درجة كبيرة من الضعف والتخلف، وظهرت على مسرح العالم قوى بلغت درجة كبيرة من القوة والتقدم، وانتهى الأمر إلى تمزق جسم الأمة إلى دويلات قومية أو قطرية، ووقعت هذه الدويلات تحت السيطرة السياسية والاقتصادية والعسكرية للدول الأوربية. فكان هَمُّ دعاة الإصلاح هو مقارعة القوى الأجنبية، أو نظم الحكم التي خضعت

لهذه القوى، والدعوة إلى استعادة الهوية الإسلامية في مجالات الحياة العامة. وتشكلت من أجل ذلك حركات وأحزاب اهتمت بالتكوين الحركي لأعضائها، وتمتين العلاقات فيما بينهم، وحشد طاقاتهم للتوسع والمغالبة والصراع، وغلب على نشاطات هذه الحركات روح التمرد على الواقع المناقض للمثل الإسلامية، والتميز عن النمط العام من الناس الذي غلب عليه الخضوع لمتطلبات الحياة الخاصة وضغوطها.

فحركات الإصلاح إذن تقوم على أفكار إصلاحية، يسعى أصحابها إلى الحركة بها لتغيير واقع الأمة أو المجتمع. وحتى ينتقل الفكر إلى الحركة لا بد من توافر شرطين: الأول أن يتبنى هذا الفكر أناس يتحركون به في الواقع القائم وينتقلون به من الفكر إلى العمل في هذا الواقع، والثاني أن يظهر أثر هذا الانتقال تغييراً في الواقع، ويتنزَّل إليه ليأخذ موقعه في حيِّز التنفيذ. فالفكر الذي لا يجد من يتبناه يصعب أن نتصور له حركة في الواقع. وقد يتبنى الفكرة شخص واحد ويعمل بها وحده، أو ينشئ لها مؤسسة لتوسيع دائرة الفكرة وتمثلاتها في الواقع، وقد يتبناها مجتمع فتتسع دائرة فعل الفكرة في الواقع. وبطبيعة الحال فإنَّ حركة الواقع بالتغيرات التي تطرأ عليه والمشكلات التي تواجهه تكون أساساً لتوليد أفكار للتكيف مع التغيرات، ولإيجاد حلول للمشكلات. فثمة علاقة تبادلية بين الفكر والواقع.

وكثير ممن أرّخ للحركات الإسلامية عدّها ظاهرة جديدة في تاريخ المسلمين، نشأت نتيجة التغير الكبير الذي طرأ على واقع الأمة الإسلامية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وهي التغيرات التي انتهت بإلغاء الخلافة. والسبب في ذلك أن هذا التأريخ يعالج الظاهرة الحديثة من جهة ويعالج المصطلح من جهة أخرى. وبهذه الصورة من التحديد التاريخي لنشأة الحركات الإسلامية يكون المفهوم أقرب إلى الحديث عن السعي لإعادة الاعتبار لمفهوم الأمة، ومحاولة تشكيل الصورة المنشودة لهذه الأمة في فكر هذه الحركات.

ولو حللنا واقع الحركات المعاصرة سواءً كانت حركات اجتماعية أو سياسية أو فكرية أو عسكرية، فإننا سوف نلاحظ أن مصطلح الحركة يشير أساساً إلى الرغبة في تغيير الواقع السائد، وبذلك فإن مفهوم الحركة يعنى وجود جماعة أو تنظيم يتحرك في الواقع القائم من أجل تغييره، ويستخدم من أجل ذلك وسائل معينة للتغير. وبذلك يمكننا القول إنّ هذا المفهوم كان حاضراً في التاريخ الإسلامي منذ بدء الرسالة الإسلامية، إذا اعتبرنا أن الحركة هي جهد للتغيير في الواقع، فإننا يمكن اعتبار توالي الرسالات السماوية حركة للدين، وبعثاً للهداية الربانية، وتجديداً في الشرائع. وبذلك تكون رسالة محمد ﷺ، حركة بعث وتجديد في الدين الإلهي، لمعالجة حالة النسيان والضلال الذي انتهت إليه البشرية، والانحراف الذي طرأ على أتباع الرسالات السابقة.

لقد كان الإسلام حركة في الواقع القائم حين نزوله، وبعد استتباب الأمر للدولة والمجتمع الإسلامي، على صورة معينة للفهم والممارسة، نشأت حركات معارضة، لا سيّما في نهاية خلافة عثمان رضي الله عنه، ودعا بعضها إلى فرض ما تبنته هذه الحركات من فهم مخالف لما كان سائداً، واستخدمت العنف في محاولة تحقيق رؤيتها الثورية المعارضة. فحركة التمرد على عثمان انتهت باستشهاده، وحركات الثأر لدمه قادت إلى معارك بين صحابة رسول الله ﷺ، والخوارج الذي خرجوا على رابع الخلفاء الراشدين عَلِيّ بين أبي طالب رضي الله عنه، كانوا حركة معارضة مسلحة، ثم كانت حركات المطالبة بأحقية آل البيت بالخلافة في العهود اللاحقة، ومنها حركة الحسين بن علي رضي الله عنه المسلحة التي انتهت كذلك باستشهاده. وكانت "ثورة الزنج" في جنوب العراق، حركة ثورية مسلحة ذات مطالب في التغيير، وهي حركة أنهكت الدولة العباسية على مدى خمس عشرة سنة.

وبقي مفهوم الحركة حاضراً على مدار التاريخ الإسلامي. وبعض هذه الحركات كانت تعد نفسها حركات إسلامية، تسعى إلى صياغة نظام الحكم وواقع المجتمع وفق الرؤية الإسلامية التي تراها. وفي هذا السياق كانت حركات التغيير والإصلاح التي اتصفت بطابع سياسي، مثل حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد (١٧٠٣-١٧٩١)، وحركة شاه ولي الله الدهلوي في الهند (١٧٠٢-١٧٦٢)، وحركة عثمان دان فوديو في نيجيريا (١٧٥٤-١٨١٧)، وحركة محمد بن علي السنوسي (١٧٨٧- ١٨٥٩) في شمال إفريقيا (١٨٥٩-١٨٧٨)، وحركة محمد أحمد المهدي في السودان (١٨٤٣- ١٨٨٥)، وغيرها، إضافة إلى حركات كثيرة قبلها وبعدها أخذت توجهاً طرقياً صوفياً، كان منها النقشبندية، والشاذلية، والقادرية، وفي مراحل لاحقة الخلوتية، والإدريسية، والتجانية، والسمانية، والختمية... إلخ. وهذا يعني أن مرجعية قيام هذه الحركات كانت مرجعية داخلية وتحددت ظروف نشأتها وتوجهاتها بالأحوال والظروف التي كانت تمر بالأمة الإسلامية، وكانت في معظم الأحيان حركات إصلاح وتجديد للشأن الديني والدنيوي للأمة الإسلامية.

ولكن حركات أخرى نشأت في العالم الإسلامي تأثرت بحالة الأمة الإسلامية من حيث حاجتها إلى الإصلاح، وفي الوقت نفسه كان تتطلع إلى التهديد السياسي والفكري الذي تمثله حالة الأمم الأوروبية، وتأثر بعض قطاعات الأمة بهذا المؤثر الخارجي. وكثير من الدراسات ترجع تأثر هذه الحركات الإسلامية اللاحقة بالجهود التي بذلها جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده اللذين حاولا إنشاء تنظيم إسلامي عالمي باسم "العروة الوثقى" وتعاونا على إنشاء مجلة بالاسم نفسه. واستمر تأثير ذلك عبر جهود محمد رشيد رضا ومجلة المنار، ثم عبر جهود حسن البنا وإنشاء حركة الإخوان المسلمين.

كان هدف الحركات العديدة التي نشأت في القرن التاسع عشر، الدعوة إلى الإصلاح والتغيير في نظام الحكم في دولة الخلافة العثمانية، بعضها

يحمل توجهات إسلامية وبعضها يحمل توجهات قومية، وبعضها يطلب حماية الأوربيين للحفاظ على المسيحية في الشرق الإسلامي. ولكن بعض الحركات لم تكن تحمل رؤية سياسية للواقع، وإنما تأسست في صيغة جمعيات إسلامية اجتماعية، تستهدف التوعية الدينية والخدمة الاجتماعية، في ظل تراجع دور الدولة عن تقديم الخدمات، وتزايد حاجة المجتمع إليها. ومن هذه الجمعيات ذات النشأة المبكرة الجمعية الخيرية الإسلامية التي أنشأها الإمام محمد عبده عام ١٨٩٢م، "وكانت هذه الجمعية هي أول عمل اجتماعي في مصر في تلك الفترة، وكانت بداية لتأسيس حركة إصلاح اجتماعي واسعة هدفها خلق مجتمع قادر على التضامن."[١]

وفي مطلع القرن العشرين أخذت بعض الحركات تنشأ من أجل الدعوة إلى التمسك بالدين وصياغة الشخصية الإسلامية، دون الاشتغال بالسياسة. وكان منها مثلاً: الجمعية الشرعية لتعاون العاملين بالكتاب والسنة المحمدية، عام ١٩١٢.

ولا نود الاستطراد في الحديث عن الحركات والأفكار التي تبنتها هذه الحركات، فهناك دراسات عديدة حاولت التأريخ لنشأة الحركات الإسلامية في العالم الإسلامي، وتصنيف هذه الحركات من حيث توجهاتها الفكرية، ومحاور اهتماماتها، يكفي أن نشير إلى البحث الذي نشرته مجلة المسلم العاصر سنة ٢٠٠١م.[٢] ولكننا نولي بعض الاهتمام بمصطلح حركة الفكر وفكر الحركة.

---

(١) المهدي، محمد المختار. الجمعية الشرعية.. صفحة من العمل الأهلي، في ذكرى إنشائها في ١ من المحرم ١٣٣١هـ، انظر الرابط:

- http://www.startimes.com/f.aspx?t=5577732

(٢) الزفتاوي، عصام الدين. حوارات حول حركة الفكر الإسلامي المعاصر خلال القرن العشرين – دراسة وتحليل، **مجلة المسلم المعاصر، العدد ٩٨**، السنة ٢٥، أكتوبر–ديسمبر ٢٠٠٠م، ص١٣٩–١٨٧.

ورد عنوان "فكر الحركة وحركة الفكر" في كتاب للعلواني كان في أصله ورقة عمل قدمت للندوة الأولى لمستشاري المعهد العالمي للفكر الإسلامي المنعقدة في واشنطن عام ١٩٨٩. وكان هذا العنوان واحداً من العناوين الأربعة التي تضمنها الكتاب، لكنه لم ينل حظاً مماثلاً من التوضيح كما نالت العناوين الثلاثة الأخرى، فقد اقتصر عنوان فكر الحركة وحركة الفكر على صفحة ونصف الصفحة. مما يوحي بأن الفكرة كانت حاضرة في ذهن المؤلف، وكان يريد أن يثيرها في ذهن القارئ، لتؤْخَذ بالاعتبار. ويبدو أن العلواني كان يريد بهذه الفكرة شيئاً مختلفاً عن الدلالة التي ينصرف إليها الذهن في غالب الأحيان. فقد ركزت إشارته الموجزة على ما سماه المؤلف "حركة الأمة" وما تحتاجه من الجهد لبلورة "المنظومة الفكرية الإسلامية المعاصرة والبديلة" والهدف هو "أن نغذي حركة الأمة بالزاد الفكري المطلوب الذي تفتقر إليه."[١]

ثم جاءت الإشارة إلى حركة الفكر من خلال التأكيد على الحاجة إلى تتبع حركة الفكر الإسلامي "منذ نزول التكليف القرآني: "اقرأ" وحتى يومنا هذا، تتبعاً دقيقاً يمكننا من معرفة سيرورة هذا الفكر ومكوناته والعوامل المتنوعة التي أثرت فيه، ورصد إيجابياته وسلبياته، وطرائق تكونه وتشكيله، ونقده... باعتباره استجابة للواقع الذي عليه الناس... فهو يقتضي الاجتهاد المستمر للتطوير والتعديل."[٢]

ثم عاد المؤلف للتأكيد على حركة الأمة من خلال التأكيد على الحاجة إلى قيام "مؤسسات متخصصة... لتزويد حركة الأمة بما تحتاجه من توعية فكرية، والعمل على تشكيل القيادات الفكرية في الساحة الإسلامية... ذلك

(١) العلواني، طه جابر. **إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات: ورقة عمل**، سلسلة إسلامية المعرفة رقم ١٠، هيرندن، فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، والرياض: الدار العالمية للكتاب الإسلامية، ط٢، ١٩٨٤، ص ٤٣.

(٢) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

أن المشكلة المطروحة في كل عصر، هي: إلى أي مدى يستطيع العقل المسلم أن ينتج أفكاراً حسية محركة للأمة، قادرة على وصلها بالقيم الهادية لها في الكتاب والسنة."[1] فالأزمة التي تعاني منها الأمة هي "أزمة فكرية؛ أي إيجاد الفكر المنبثق عن الإطار المرجعي ملاحظاً معه الزمان والمكان والإنسان؛ الفكر المتقن لعمليات تنزيل هذه القيم في الواقع؛ الفكر القادر على رسم وبناء منهج التنزيل في الواقع، وحراسة ذلك المنهج بمنهج التجديد المستمر، والوعي الدائم على السنن. فكيف نصنِّع هذه الأفكار ونحولها إلى أفكار حية تضبط حركة أمتنا في ضوء معطيات العصر وحاجاته؟"[2]

وقد تطور عنوان: "حركة الفكر وفكر الحركة" في التعديلات التي أدخلت على الكتاب في طبعاته اللاحقة، ليصبح العنوان: المشروع تجديد لفكر الحركة وتنشيط لحركة الفكر" لكنّ المفهوم بقي حاضراً، وذلك عندما أثبت ما أورده في الطبعة الثانية من ضرورة تتبع حركة الفكر الإسلامي...ولوصل حركتنا به." ثم تقرير أنه: "لا يمكننا... أن نتجاوز هذه المهمة الجماعية، مهمة تزويد حركة الأمة بما تحتاجه من فكر، والعمل على بناء حركة الفكر في الساحة الإسلامية والمعاصرة."[3]

فالعلواني لم يكن معنياً بفكر الحركة بمعنى الأفكار التي تتبناها الحركات الإسلامية، بقدر ما كان معنياً بفكر الأمة وحركة الأمة بهذا الفكر، ومن ثم حركة الفكر في الساحة الإسلامية.

أما الريسوني فقد أورد في مقالة قصيرة العنوان نفسه "الحركات الإسلامية

---

(١) المرجع نفسه، ص ٤٤

(٢) المرجع نفسه ص ٤٤.

(٣) العلواني، طه جابر. **إصلاح الفكر الإسلامي: مدخل إلى نظم الخطاب في الفكر الإسلامي المعاصر**، هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٥، ٢٠٠٩م، ص ٨٨.

في فكر الحركة وحركة الفكر." معالجة مختلفة جاءت ضمن أوراقه النقدية.[1] وقد لاحظ الريسوني أن نشأة الحركات الإسلامية المسكونة بالهم السياسي قد رافقه ضعف في تكوين العلماء والمفكرين والباحثين. ومن ظهر في الحركات من هؤلاء ظهر عرضاً، فقد "تشكلت الحركات الإسلامية في قياداتها وصفوفها واهتماماتها وأولوياتها على أساس هموم الدعوة والتربية العملية، وعلى أساس الجهاد والجندية وما يتطلب ذلك من بذل وتضحية."

ومن ثم فإن ما نشأ في فكر للحركة كان فكراً "في خدمة الحركة ومتطلبات المعركة، فكر يدافع عن خط الحركة، وعن مواقف الحركة، وعن تعليمات الحركة، وعن اختيارات الحركة، وعن مصلحة الحركة. فكر يواجه ما هو يومي وينهمك فيما هو آني، وينضبط للتوجيهات والتعليمات والمتطلبات. فهذا هو "فكر الحركة"، وهو في الحقيقة أقرب إلى ما يسمى -بصفة عامة- بالفكر الحزبي أو العقلية الحزبية. وفكر الحركة بهذا المعنى هو فكر موجه وتابع ومقيد، سواء في قضاياه وموضوعاته أو في مواقفه واختياراته." ولذلك "فقد عجز فكر الحركة هذا على عن مواكبة التطورات والمستجدات، سواء داخل الحركات الإسلامية نفسها أو فيما حواليها. وعجز من باب أولى عن أن يكون هو صانع التطورات ومبدع الاجتهادات."

وإذا كان الريسوني يتفهم ظروف نشأة الحركة الإسلامية في صورة "حركة تحريرية... بحاجة ماسة إلى فكر نضالي منضبط ومتمذهب باختياراتها،" فإنه يقرر أن الحركة الإسلامية: "قد أصبحت اليوم مدعوة وملزمة بأن تكون حركة اجتهادية تجديدية، في نفسها وفي مجتمعها، فلذلك أصبحت في أمسَّ الحاجة

(١) وردت هذه المقالة على الموقع الإلكتروني للدكتور أحمد الريسوني مؤرخة في ١١/٥/ ٢٠٠٥م ضمن سلسلة من المقالات في نقد الحركة الإسلامية، وقد نشرت المقالة في مواقع إلكترونية كثيرة وشارك في الحديث عنها والإشارة إليها كثير من الكتاب. انظر المقالة في موقع الريسوني على الرابط:

- http://www.widesoft.ma/raissouni/def.asp?codelangue=6&info=347

إلى الفكر الحر وإلى الفكر المبدع، فهي بحاجة إلى أن تطلق وتدفع "حركة الفكر" من غير خضوع وتبعية لفكر الحركة."

الحركة الإسلامية اليوم بحاجة إلى فكر يقود حركتها بكثير من الحكمة والرشد، في ظل التحديات المتجددة، والتطورات المتلاحقة، ويصعب أن ينمو هذا الفكر ويتجدد دون قدر كبير من الحرية في "التفكير من خارج الصندوق". وهي بحاجة إلى الاحتفاظ بالعناصر التي يبدو أنها "تغرد خارج السرب"، وتأخذ ما تقول به في الحسبان. وهي بحاجة إلى الاستعانة بعناصر من خارج الحركة لتنظر إلى المشكلات التي تحتاج إلى حلول من زوايا نظر لم تعهدها الحركة. فكثير من القضايا التي تحاول الحركة أن تقدم فيها رؤية هي قضايا "معولمة"، تتأثر بعوامل داخلية وخارجية كثيرة، وتحتاج إلى خبرة متخصصة، واطلاع واسع، ومتابعة حثيثة، قد لا يتاح لأجهزة الحركة أن توفرها. وبهذه الصورة تصبح الحركة الإسلامية حركة مفتوحة الفكر، غنية المصادر، سريعة التكيف، تحتضن كفاءات الأمة وتوظفها وترشد حركتها.

حين يسبق الفكرُ الحركةَ وتقود حركةُ الفكر فكرَ الحركة يزداد الأمل بتحقُّق الحركة بالرشد والبصيرة، وتتمكن من تقديم المبادرات واقتراح البدائل و"السيناريوهات"، وصناعة الأحداث، والاحتفاظ بجمهور من المفكرين على ما بينهم من تنوع في الرؤى الفكرية، وتكون الحركة في حالة إنتاج متجدد، تضيف إلى رصيدها المتنامي من الفكر والعطاء.

وحين تسبق الحركةُ الفكرَ، ويُقيِّد فكرُ الحركة حركةَ الفكر، فيخشى أن يكون ذلك مقدمة للبحث عن المبررات والمسوغات والحجج، وتضطر الحركة إلى البقاء في موقع ردود الفعل، وانتظار وقوع الأحداث والتيه في تفسيرها، والارتهان إلى لون من الفكر يكون طارداً للكفاءات الفكرية من الألوان الأخرى، وتتجمد الحركة في موقع الاستهلاك الذي يستنزف ما لديها، فتضطر إلى الاستيراد والتبعية، وتقع في براثن التخبط والاضطراب.

خامساً: المدارس الفكرية

شهد النصف الثاني من القرن العشرين مجموعة من الشخصيات التي اهتمت بالفكر الإسلامي، بعضها كان ضمن الحركات والأحزاب والتنظيمات الإسلامية، وبعضها تعامل مع الفكر الإسلامي من موقف ناقد للتوجهات الفكرية التقليدية سواءً السلفية التراثية أو التجديدية العصرية، واتخذ مساراً متحرراً من هذه التوجهات، يجتهد في ممارسة المنهجية التي عرفتها مذاهب الحداثة الغربية، أو مذاهب ما بعد الحداثة، وكانت بعض هذه الممارسات علنية صريحة، وبعضها ضمنية باطنية.

واستخدم مصطلح "المشروع الفكري" لوصف إنتاج الكاتب أو الباحث. فثمة مشروع فكري لمحمد الغزالي، ومشروع فكري لخالد محمد خالد، وفي مرحلة من مراحل تمايز هذين المشروعين قامت معركة فكرية بينهما دارت رحاها على صفحات كتابين، (من هنا نبدأ، ومن هنا نعلم). ومن بعض أساتذة الجامعات الذين يعدون أقرب إلى العلماء في موضوعات اختصاصهم العلمي، من عرف بالفكر أكثر مما عرف بالعلم، وربما يكون سبب ذلك هو طبيعة التخصص الفلسفي، وعرف كل منهم بمشروعه الفكري الذي يميزه، ومن هؤلاء: إسماعيل الفاروقي، ومحمد أركون، وحسن حنفي، ومحمد عابد الجابري، وطه عبد الرحمن، وفهمي جدعان، على ما بين هؤلاء من اختلاف في المضامين والتوجهات الفكرية. ومن هؤلاء من ترك تخصصه العلمي في الطب أو الهندسة أو الجيولوجيا، وانشغل بقضايا فكرية أنتج فيها إنتاجات ملموسة أشغل فيها مساحة من الاهتمام الفكري، ومن هؤلاء مصطفى محمود، ومالك بن نبي، وزغلول النجار.

وبطبيعة الحال كان بعض هؤلاء يتحدث عن نفسه بوصفه صاحب مشروع فكري، وبعضهم يتواضع، فيترك لغيره أن يصفه بهذا الوصف، وبعضهم يغالي في وصف نفسه بأنه رائد مدرسة فكرية لها تلاميذها وأتباعها.

وفي العقود الماضية ظهرت شخصيات متعددة كان لها اهتمام ملحوظ بالشأن الفكري الإسلامي العام، ثم أنشأ بعضهم مؤسسات لتدريب المهتمين بأفكارهم على امتلاك بناء فكري محدد. كما ظهرت اهتمامات بالشأن الفكري عند كثير من الناشطين في العمل الدعوي والخيري - التطوعي، فضلاً عن مواقع إلكترونية عديدة متخصصة في مسائل الفكر والتفكير والتنمية الفكرية، والبرامج التعليمية والتدريبية ذات الصفة الثقافية العامة، أو العلمية - الأكاديمية التي تنتهي بدرجات علمية.

الجزء الأكبر من الحديث فيما سبق تناول الحديث عن الفرد الإنساني من حيث اتصافه بالفكر، ومن ثم يمكن أن نقول: إنَّ لدى ذلك الفرد بناءً فكرياً معيناً، أو أنه مفكر. لكن البناء الفكري يمكن أن يكون صفة لمجموعة من الناس يشتركون في أنهم يملكون بناءً فكرياً واحداً، أو ينتمون إلى مدرسة فكرية واحدة. والمدرسة الفكرية قد تكون جمعية إصلاحية، أو حركة دينية، أو حزباً سياسياً، أو جماعة علمية في تخصص معين، وقد تكون تياراً فكرياً واسعاً يشمل قطاعات كبيرة من المجتمع، أو تغلب على المجتمع كله. وقد يغلب على أتباع المدرسة الفكرية منهج محدد في النظر إلى الأمور وممارسة التفكير والبحث والسلوك ضمن هذا المنهج، كما هو الحال في المدرسة الصوفية أو المدرسة السلفية، أو الفلسفية. كما قد تتميز مناهج النظر بين المدارس الفكرية في صورة مذاهب فقهية مختلفة.

وفيما يلي أمثلة على عدد من المدارس الفكرية:

١- جماعة الإخوان المسلمين

لنجرب تحليل مواصفات مجموعة من الناس يمتازون بقدر كبير من التجانس في البناء الفكري المشترك، إن معظم أفراد جماعة الإخوان المسلمين يشتركون في مجموعة من الأفكار الخاصة بنظرتهم إلى المجتمع، والدولة، والتاريخ، والغرب، وفي تحديد نوعية الجهود المطلوبة للإصلاح والتغيير الاجتماعي

والسياسي. ولا شك في أنَّ المنهج التربوي للإخوان، والثقافة التي يتلقونها من الكتب والجرائد والمجلات والنشرات المعتمدة لديهم، كل ذلك يشكل الأساس لاشتراكهم في قدر كبير من البناء الفكري. فالجماعة تعتمد التربية أساساً للإصلاح والتغيير، بدءاً من الفرد، ثم الأسرة، ثم المجتمع، ثم الدولة. وتتعاون الجماعة مع غيرها في مشاريع التربية والإصلاح تحت شعار "نتعاون في ما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه". وتسلك الجماعة سبيل التنافس السياسي والحزبي في الوصول إلى مواقع صنع القرار، وتؤمن بالتدرج في تطبيق أحكام الإسلام، وترى أن المجتمعات التي يعيش فيها المسلمون مجتمعات مسلمة أصابها انحراف في كثير من الجوانب، وبدرجات متفاوتة. وتدعو إلى استقلال الدول الإسلامية، وعدم تبعيتها السياسية أو الاقتصادية للدول الأخرى، ولا مانع من التعاون مع الدول الأخرى على أساس المصالح.[1]

٢- حزب التحرير الإسلامي

وصورة البناء الفكري المشترك لدى حزب التحرير الإسلامي أكثر وضوحاً مما هي عند الإخوان؛ إذ يرى الحزبُ أنّ قضيته الأساسية هي إقامة الخلافة

---

(١) البيانات والمراجع المتوفرة عن الإخوان كثيرة، ولكن للاطلاع على كون الجماعة مدرسة فكرية يمكن الاكتفاء بثلاثة مراجع من توجهات مختلفة، وهي:

- عبد الرحمن، محمد. **منهج الإصلاح والتغيير عند جماعة الإخوان المسلمين**، القاهرة: دار التوزيع والنشر الإسلامية، ٢٠٠٦م.
- العوا، محمد سليم. حسن البنا ومدرسة الإخوان المسلمين الفكرية، محاضرة بجمعية مصر للثقافة والحوار بتاريخ ٢٦ مايو ٢٠٠٩م، يمكن مشاهدة المحاضرة أو تحميلها على الرابط التالي:

http://www.amlalommah.net/aml-6098.html

- Vidino, Lorenzo. Five myths about the Muslim Brotherhood, *Washington Post*, Sunday, March 6, 2011.

والكاتب إيطالي متخصص في شؤون الإسلاميين، وباحث زائر ومستشار في كثير من مراكز الأبحاث الغربية، وكثيراً ما يدعى لتقديم منشوراته إلى صنّاع القرار في الولايات المتحدة وأوروبا.

الإسلامية عن طريق إنشاء تكتل سياسي، يقوم بالصراع الفكري، ومقارعة الحكام. فالحزب لا يعترف بشرعية نظم الحكم القائمة في البلاد الإسلامية ويعدُّها نظماً كافرة، ومجتمعات المسلمين هي دار كفر، ولا يؤمن بالنظم الديمقراطية وسيلة إلى الإصلاح، ويَعتمد أساليب التثقيف السياسي، والصراع الفكري، والكفاح السياسي، ومقارعة الحكام، وعدم مشاركتهم في الحكم، وعدم مساعدتهم في الإصلاح الاقتصادي أو الاجتماعي أو التعليمي أو الخلقي... ولا يجوز تطبيق الأحكام بالتدرج، بل يجب تطبيقها جميعها دفعة واحدة، أساساً للتغيير. وينتظر الحزب وصول الصراع السياسي إلى درجة من التوتر تؤدي إلى قيام سلطة سياسية باتخاذ قرار في اعتماد نظام الحكم الإسلامي، وإعادة الخلافة الإسلامية.[1]

٣- مدرسة فرانكفورت في الفلسفة

وهي الأساس لمعظم النظريات والاتجاهات النقدية لما بعد الحداثة، وخاصة في الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس والأنثروبولوجيا وحتى في الأدب والفن والموسيقى، وتقوم فلسفتها على نظرية نقدية معيارية للمجتمع، تحاول هذه النظرية النقدية فهم وتشخيص أسباب الأوضاع السيئة في الواقع الاجتماعي.[2]

٤- مدرسة شيكاغو في الاقتصاد

تشير إلى المنهج الذي اعتمده أعضاء قسم الاقتصاد في جامعة شيكاغو معظم القرن العشرين، وتتبنى المدرسة نمطاً محدداً في الاقتصاد، يوصف بأنه نموذج كلاسيكي جديد في الليبرالية، لا سيما فيما يختص باقتصاد "السوق

(١) حزب التحرير. **حزب التحرير**، بيروت: دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ٢٠١٠م، ص ١٨-١٩، ٤٣، وانظر كذلك:

- حزب التحرير. **مفاهيم حزب التحرير**، (د.م.)، (د.ن.)، ط٦، ٢٠٠١م، ص ١٥-١٦.

(2) Wiggershaus, R. *The Frankfurt School*, Cambridge, Mass.: Massachusits Instituute of Technology MIT Press, 1994

الحر" يختلف نسبياً عن النمط المغرق في المنهج الرياضي الشكلي، ويتجاوز فكرة التوازن العقلاني العام نحو تحليل توازن جزئي قائم على النتائج. وتعتمد المدرسة مبدأ تقليل الضرائب وتنظيم القطاع الخاص، وتختلف عن اقتصاد السوق الحر الخالص، بدعمها لدور الحكومة في تنظيم السياسية المالية.(١)

٥- مدرسة فيينا الوضعية

وقد أسسها مجموعة من العلماء والفلاسفة الألمان والإنجليز بزعامة "كارناب" Rudolf Carnap، وذلك في الربع الثاني من القرن العشرين، وتعتمد الفلسفة الوضعية المنطقية التي أسسها "أوجست كونت" Auguste Comte . ويعتقدون بأن قضايا كل العلوم البشرية غير المنطق لا بد أن تؤيّد بالحس والتجربة. ولكن القضايا المنطقية ـ التي تحدد طريقة تفكير البشر وتعصمه عن الخطأ في الفكر ـ هي القضايا والأصول العلمية الوحيدة التي لا يجب أن تثبت بالحس والخبرة؛ لأنَّها تعلِّمنا طريقة التفكير الصحيح. وتستبعد المدرسة الميتافيزيقا من مجالات الاهتمام العلمي والفلسفي، وقد عانت المدرسة من ضربات قوية على يد الجيل الثاني من فلاسفة العلم من أمثال "توماس كوهن" Thomas Kuhn، و"ويلارد كواين" Willard Quine.(٢)

٦- مدرسة إسلامية المعرفة

ويتبناها المعهد العالمي للفكر الإسلامي وعدد من المؤسسات الأخرى في العالم الإسلامي، وترى أن مشكلة الأمة الإسلامية حالياً هي مشكلة فكرية

(1) Ovdrtveltdt, Johan Van. *The Chicago School: How the University of Chicago Assembled the Thinkers Who Revolutionized Economics and Business*, Chicago: Agate B2; First Trade Paper Edition, 2009. See on the failure of the model of Chicago School in:

- Cassidy, Johm. Letter from Chicago, "After the Blowup", *The NewYorkers*. January 11, 2010, p. 28

(2) Stadler, Friedrich. (Editor). *The Vienna Circle and Logical Empiricism: Re-evaluation and Future Perspectives* (Vienna Circle Institute Yearbook), New York: Springer 1 edition, 2003

تنعكس على سائر المشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الأخرى، وأن مصدر هذه المشكلة هو النظام التعليمي الذي يجعل المعرفة التي يتم تعليمها في مؤسسات التعليم المدرسية والجامعية، مجردة من الأساس الديني والقيمي، وأنَّ التعليم الديني حين يقدم في هذه المؤسسات يتم بصورة مجردة عن المعرفة المعاصرة.

وترى مدرسة "إسلامية المعرفة" ضرورة إصلاح الفكر الإسلامي، بإعمال التجديد والاجتهاد في تنزيل الهدي القرآني والنبوي على الواقع زماناً ومكاناً وتنقية التراث مما لحق به من قصور وجمود لا يزال يشكِّل أزمة في العقل المسلم المعاصر. وفي الوقت نفسه ترى المدرسة دراسة العلوم الإنسانية والاجتماعية المعاصرة دراسة تحليلية نقدية، تخلِّصُها مما لحق بها من مشكلات معرفية ومنهجية من جهة، وتُعمل الرؤية الإسلامية في صياغاتها النظرية والفلسفية، من جهة أخرى.

ونظراً لأن واحدة من مشكلات العلوم الاجتماعية في الغرب هي محاولات إخضاعها للمنهجية العلمية الصارمة التي لا تؤمن إلا بالخبرة الحسية، فإنَّ الرؤية الإسلامية التي تعتمد التكامل بين الخبرة العقلية والحسية في فهم النصوص الدينية من جهة، وفهم وقائع العالم الطبيعية وطبائع النفس الإنسانية والمجتمع الإنساني، من جهة أخرى، سوف لن تقدم المعرفة البشرية للمسلمين بصورة مناسبة وحسب، وإنما تُسهم في حل مشكلات فلسفة العلم ونظرية المعرفة في العالم الغربي نفسه.[1]

٧- المدرسة السلفية

في إطار الحديث عن المدارس الفكرية، هل يمكن أن نعدّ التوجهات السلفية المعاصرة مدرسة فكرية؟

---

(١) المعهد العالمي للفكر الإسلامي. **إسلامية المعرفة: المبادئ العامة - خطه العمل - الانجازات،** هيرندن، فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٨٩م.

في الكلام عن تاريخ مصطلح السلفية، ترد مصطلحات عديدة منها: أهل الحديث، وأهل السنة والجماعة، والطائفة المنصورة، والحركة الوهابية. ويرد الكلام عن الإمام أحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ)، الذي وُصف بأنه إمام أهل السنة، وصاحب المذهب المعروف في الاعتقاد والفقه، والخبرة المتميّزة في مواجهة الفلسفة والاعتزال والتصوف، وأنموذج الثبات والصبر الطويل في المحنة المعروفة بفتنة خلق القرآن. ويرد الكلام كذلك عن شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ)، والمعارك العلمية والعملية التي خاضها، دفاعاً عن بلاد الإسلام وسنة رسوله ﷺ. ويرد الكلام كذلك عن محمد بن عبد الوهاب (ت١٢٠٦هـ) الذي حاول إحياء تراث ابن تيمية، وأقام دعوة إصلاحية تحارب البدع والخرافات والتوسل بالقبور، ثم تحالف معه محمد بن سعود أمير الدرعية، وهو التحالف الذي استمر عبر الدولة السعودية الأولى والحالية. وبذلك ظهر مصطلح الوهابية الذي أصبح يطلق على البعد الديني من الدولة السعودية.

وثمة مراجع وكتب متخصصة تتحدث عن نشأة السلفية، وظروف انتشارها وكيفية انتقالها من وصف علمي يرغب معظم العلماء والدعاة أن يتشرفوا به، إلى أسماء مؤسسات وجماعات وتنظيمات ودول تحتكر هذه الصفة، وتنفيها عن غيرها.

لقد كثر الكلام في العقد الأخير من القرن العشرين والعقد الأول من القرن الحادي والعشرين عن السلفية بتوجهات متضاربة إلى حد كبير، فثمة أنظمة ودول ترفع شعار السلفية، وتجد من يعارضها بالسلاح بحجج سلفية، ومن يدافع عن هذه الأنظمة بحجج سلفية. وتتمايز في هذا الإطار سلفيات علمية، وسلفيات جهادية، وسلفيات سياسية... إلخ.

لقد اختلط مفهوم السلفية بالمعاني السلبية بتأثير عوامل متعددة منها الإعلام الرسمي في العالم العربي، والإعلام الأجنبي الذي جَهَد في تشويه صورة الإسلاميين عموماً وحركات المعارضة السياسية للأنظمة الدكتاتورية،

وللنفوذ الأجنبي. ومنها الكتابات التي أصدرها كثير ممن يصنفون أنفسهم أو يصنفهم غيرهم بالحداثيين والعلمانيين والليبراليين. ومنها ممارسات فئات إسلامية مختلفة ترفع شعار السلفية وتمارس خطاباً إقصائياً، وتلجأ إلى العنف مع المخالفين سواءً حكاماً أو محكومين. إنَّ الشائع عن المدرسة السلفية لا يخلو من كثير من المشكلات التي يعود مصدرها لمدونات تاريخية، ومواقف سياسية. لكن الأكثر أثراً في اختلاط الأمور اليوم، بشأن السلفية، هو المعارك الإعلامية، والجماعات المتعددة التي تعلن انتسابها للسلفية، رغم التباين الشديد في توجهات هذه الجماعات وممارساتها.

ونكتفي في هذا المقام بالإشارة إلى مثال واحد على نوع من المعالجة للفكر السلفي، دفاعاً عنه،[1] ومثال واحد آخر على نوع من المعالجة رفضاً للتحزب والتمذهب بهذه الصفة.[2] ففي الكتاب الأول يُعرِّف الكاتب السلفية بصورة لا جدال حولها، فيقول: السلفية هي: "الاتجاه المقدِّم للنصوص الشرعية على البدائل الأخرى، منهجاً وموضوعاً، الملتزم بهدي الرسول ﷺ، وهدي أصحابه علماً وعملاً، المطّرح للمناهج المخالفة لهذا الهدي في العقيدة والعبادة والتشريع." وبهذا التعريف يكون من حق معظم الجماعات الإسلامية ومعظم العلماء المسلمين، أن يُعدُّوا سلفيين. ومن ثم فلا مشكلة في تبني الاتجاه السلفي، ما دام يتسع لنتائج الاجتهاد في تفسير النصوص وتطبيقها. والكتاب الثاني، لا يناقش آراء الجماعات السلفية وأفكارها، ولكنه يقرر أنَّ عصر السلف نبراس للأمة المسلمة الواحدة، ويتساءل عن حق أية جماعة في الخروج على إطار الأمة لتبتدع من السلفية إطاراً جديداً لجماعة إسلامية متميّزة، في ضوء ما أحدثه التحزب تحت هذا الإطار من آثار على صعيد الواقع الإسلامي وفي مجال الدعوة الإسلامية.

(١) الزنيدي، عبد الرحمن بن زيد. **السلفية وقضايا العصر**، الرياض: مركز الدراسات والإعلام/ دار إشبيليا، ١٩٩٨م.

(٢) البوطي، محمد سعيد رمضان. **السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي**، دمشق: دار الفكر، وبيروت: دار الفكر المعاصر، ط١١، ٢٠٠١م.

ومع كل ما ذكرنا فإنّ التعريف المشار إليه للسلفية لا يمنع من عدّه عنواناً لمدرسة فكرية في مواجهة مدارس أخرى تعتمد المصالح خارج إطار النصوص الشرعية، وتستبعد الهدي النبوي في ترشيد تنزيل النصوص على الواقع، وتستورد أنظمة وأفكاراً وممارسات تخالف المعروف من الإسلام بالضرورة. ليس ثمة ما يمنع من الحديث عن مدرسة فكرية بهذه المواصفات، لا سيما إذا عزلنا المضامين الفكرية والعلمية لهذه المدرسة عن المواقف السياسية، وما أنتجته من أشكال الصراع بين أصحاب الأهواء، والتضارب بين مصالحهم الحزبية.

وتتميز المدرسة الفكرية غالباً بوجود عدد من الرواد التي يُرجَع إلى كتاباتهم في توضيح مقولات هذه المدرسة، يشتركون في مجموعة من الأفكار، ومجموعة من الآمال والطموحات، التي يسعون إلى تحقيقها، بقدر من التعاون والتنسيق بين المنتمين إلى المدرسة. وتتميز المدرسة كذلك بوجود جمعية مهنية أو علمية، تضم المنخرطين بهذه المدرسة والقريبين منهم. وتعقد الجمعية عادة مؤتمراتها الدورية التي تُعمِل رؤيتَها في بحث القضايا التي تراها مجال الاهتمام في الدراسة والبحث والمناقشة. وبعض المدارس تتوفر على إدارات للنشر ودوريات ثقافية أو علمية تنشر الأدبيات التي يتم إنتاجها ضمن هذه المدرسة.

فالبناء الفكري ضمن المدرسة الفكرية الواحدة هو مجموعة الأفكار (المعتقدات) والآمال (المشاعر) التي تشكل رؤية الإنسان الفرد لنفسه، ولمجتمعه، ولتاريخ هذا المجتمع وحاضره ومستقبله، ولواقع العالم من حوله، وتاريخ هذا العالم، ولمنهج التغيير المطلوب لإصلاح الواقع في مجتمعه وحل مشكلاته. ويشترك أعضاء المدرسة الفكرية الواحدة بمجمل هذه الأفكار والآمال.[1]

(١) أرجو أن لا يؤخذ هذا النص بوصفه التعريف "الجامع المانع"، بل يؤخذ على أنه صيغة من الصيغ التي نعبر بها عن مفهوم البناء الفكري، بمناسبة التمييز بين عنصرين في هذا البناء وهما: المدركات الاعتقادية، والمدركات الانفعالية.

صحيح أن الأفكار والآمال في المدرسة الفكرية الواحدة قد لا تكون متطابقة تماماً، نظراً للاختلافات الفطرية بين الأفراد وتميز كل منهم عن الآخر، لكن القدر المشترك بين مجموعة الأفراد في المدرسة الواحدة يكفي لجعلهم مجموعة واحدة، متميزة عن الأفراد في خارج المجموعة، أو عن المجموعات الأخرى.

ويتم الحديث أحياناً عن النخبة في المجتمع، حيث إن كل مجتمع يمكن أن نميز فيه بين النخبة والعامة، وأحياناً يلزم التمييز بين النخب، فنقول: "النخبة السياسية"، أو "النخبة الاقتصادية" أو "النخبة الفكرية". وفي هذه الحالة فإن النخبة الفكرية في المجتمع لا يشترك أفرادها بالضرورة في بناء فكري موحد، بل يمكن أن نميز في داخل النخب مثلاً بين مدرسة فكرية إسلامية، ومدرسة فكرية علمانية، لكن الذي تشترك فيه هذه المدارس في أنها تحمل أفكاراً تميزهم عن العامة، على افتراض أنه يصعب أن نقول عن العامة، إنها تمتلك بناءً فكرياً محدداً.

خاتمة:

من خلال عناوين وفقرات هذا الفصل يتبين لنا أنَّ مفهوم البناء ينبغي أن يصاحبه تخطيط وتصميم، وأنَّ مفهوم الفكر ينبغي أن يرافقه قدر كبير من العلم والثقافة، فالذي لا يملك فكراً إنَّما هو متبعٌ لهوى نفسه أو غيره. وعملية البناء ما هي إلا عملية انتقال من حالة قائمة إلى حالة منشودة؛ ملتزمة بخطة وأهداف، يتم تنفيذها في خطوات واضحة، وأما البناء فهو مكونات بنسب ومقادير، وتتصل ببعضها بعلاقات وروابط.

وتبين كذلك أنَّ التفكّر أرقى من التفكير، لأنَّه جهد مقصود للوصول إلى الحقيقة، وأنَّ التذكّر نوع من التفكُّر، لأنَّه يتضمن استحضار الذهن بما كان يعلمه الإنسان عن الموضوع، أما التدبُّر، فإنّه يتجاوز كل ذلك إلى النظر في عواقب الأمور.

أما عن مراحل التفكير فقد قسمها بعض الباحثين إلى أربعة مراحل، الأولى أنَّ الإنسان يتفكر في المعارف التي يكتسبها بالإدراك الحسي أو التخيُّل، وهي ما يمكن تسميته بمرحلة الإدراك المادي، والثانية أن يدقِّق الإنسان النظر في ألوان المعرفة، ويمكن تسمية هذه المرحلة بالتذوق الانفعالي، أما المرحلة الثالثة من التفكّر فهي أن يتفكر بصفات الله الخالق المبدع، والاعتراف بفضله وعظمته، ويمكن تسمية هذه المرحلة بالإيمان، والرابعة أن ينتقل المؤمن من إدراك الصانع الحكيم إلى مواصلة التأمل، والذِّكْر، والحُبِّ، والشفافية الوجدانية إلى استشعار وجوده مع الملأ الأعلى، فيرى ما لا يستطيع أن يتحدث عنه، أو يتكلم فيه. وهي ما يمكن تسميتها بحالة الشهود.

إن مهمة التمييز بين الفكر والعلم تقف عند المصطلح وليس عند المفهوم، فمصطلح العلم قديم، يمكن أن يطلق على علم أصول الفقه، أو علم الكيمياء أو غيره، وأما الفكر فهو مصطلح حديث نقصد به مجموع المدركات والأحكام التي يصل إليها التفكير البشري بهدف فهم الموضوع وتحليل عناصره وأسبابه ونتائجه، وعلاقة هذا الموضوع بالواقع.

وإذا كان الفكر هو حركة العقل فإنَّ بين الفكر والحركة تلازماً، يقضي بأن يقود الفكر أي حركة تبتغي الإصلاح والتغيير، فتكون حركة الفكر هي التي تقود فكر الحركة، ولا تكون الحركة أسيرة لمتطلبات التنظيم الحركي الذي ربما يفتقد القدرة على الغنى الفكري والمبادرة والمبادأة بأفكار التجديد والتطوير.

لقد تبين لنا أنّ للبناء الفكري قواعد وأسساً، وله مصادر وأدوات وأساليب... وإذا أتيح لعدد من الأفراد أن يقيموا بناءهم الفكري على أساسها، فإننا نتخيل أن يكون هؤلاء الأفراد في مدرسة فكرية واحدة، ومع ذلك فإننا لا ننسى أن الفروق الفردية بين الناس ستجعل أبناء المدرسة الفكرية يتمايز بعضهم عن بعض رغم ما بينهم من مشتركات. ونحن نقدر أنَّ الحاجة قائمة للأمرين معاً: للمشتركات

الفكرية، من جهة، وللتمايز في المواهب والقدرات والميول الفردية، من جهة أخرى. والتوازن بين هذين الأمرين ضروري؛ فالمشتركات تسمح بالتعاون في تحقيق أهداف مشتركة للجماعة والمجتمع والأمة، والتنوع يسمح بالتكامل بين الخبرات المتنوعة بين أفراد الجماعة وفئات المجتمع ومجتمعات الأمة.

obeikan.com